التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

وصلِّ اللَّهم وسَلِّم على سيدنا محمد نبي التوبة[١] وعلى آله وأزواجه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.. ثم أما بعد:

رُوي عَنْ الأَغَرّ الْمُزَنِيّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي. وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[٢].

وعن أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: سَمِعْتُ الأَغَرّ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيّ ﷺ يُحَدّثُ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ. فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»[٤].

قال الإمام النووي: قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» قال أهل اللغة: الغين بالغين المعجمة والغيم بمعنى والمراد هنا ما يتغشى القلب.

قال القاضي: قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه فإذا فتر عنه أو غفل عَدَّ ذلك ذنباً واستغفر منه.

قال: وقيل هو همه بسبب أمته وما اطَّلَعَ عليه من أحوالها بعده، فيستغفر لهم.

---

(١) ورد هذا الاسم في حديث مسلم [١٦٦٠] وفي حديث أبي داود [٥١٦٥]. قال صاحب تحفة الأحوذي: قال في مجمع البحار: نبي التوبة لأنه تواب يستغفر كل يوم سبعين أو مائة؛ وقال فيه أيضاً: نبي التوبة والرُّحم؛ أي: جاء بقبولها بالقول والاعتقاد، لا يقتل الأنفس، وجاء بالتراحم نحو: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩] اهـ.

(٢) رواه مسلم [٢٧٠٢/ ٤١].

(٣) رواه مسلم [٢٧٠٢/ ٤٢].

(٤) رواه مسلم [٢٧٠٣/ ٤٣].

وقيل: سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أمته وأمورهم ومحاربة العدو ومداراته، وتأليف المؤلفة، ونحو ذلك فيشتغل بذلك من عظيم مقامه فيراه ذنباً بالنسبة إلى عظيم منزلته وإن كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات وأفضل الأعمال فهي نزول عن عالي درجته ورفيع مقامه من حضوره مع اللّه تعالى ومشاهدته ومراقبته وفراغه مما سواه فيستغفر لذلك.

وقيل: يحتمل أن هذا الغين هو السكينة التي تغشى قلبه لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨] ويكون استغفاره إظهاراً للعبودية والافتقار وملازمة الخشوع وشكراً لما أولاه.

وقد قال المحاشي: خوف الأنبياء والملائكة خوف إعظام وإن كانوا آمنين عذاب اللّه تعالى.

وقيل: يحتمل أن هذا الغين حال خشية وإعظام يغشى القلب ويكون استغفاره شكراً كما سبق، وقيل: هو شيء يعتري القلوب الصافية مما تتحدث به النفس فهوّشها.

قوله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى اللّه فإني أتوب في اليوم مائة مرة» هذا الأمر بالتوبة موافق لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

والتوبة أهم قواعد الإسلام وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة. قوله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب اللّه عليه» قال العلماء: هذا حد لقبول التوبة وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن للتوبة باباً مفتوحاً فلا تزال مقبولة حتى يغلق فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق وامتنعت التوبة على من لم يكن تاب قبل ذلك»[1] وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ومعنى تاب اللّه عليه: قَبِل توبته ورضي بها.

---

(١) روى الترمذي [٣٥٣٥] وابن ماجه [٤٠٧٠] عن صفوان بن عسال رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن من قبل مغرب الشمس باباً مفتوحاً عرضه سبعون سنة، فلا يزال ذلك الباب مفتوحاً للتوبة، حتى تطلع الشمس من نحوه فإذا طلعت من نحوه، لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً». وحسنه الألباني.

وللتوبة شرط آخر وهو أن يتوب قبل الغرغرة كما جاء في الحديث الصحيح وأما في حالة الغرغرة وهي حالة النزع فلا تقبل توبته ولا غيرها، ولا تنفذ وصيته ولا غيرها.

وقال الحافظ في الفتح: التوبة ترك الذنب على أحد الأوجه. وفي الشرع ترك الذنب لقبحه، والندم على فعله، والعزم على عدم العود، ورد المظلمة إن كانت، أو طلب البراءة من صاحبها وهي أبلغ ضروب الاعتذار؛ لأن المعتذر إما أن يقول: لا أفعل، فلا يقع الموقع عند من اعتذر له لقيام احتمال أنه فعل لا سيما إن ثبت ذلك عنده عنه، أو يقول: فعلت لأجل كذا ويذكر شيئاً يقيم عذره وهو فوق الأول، أو يقول: فعلت ولكن أسأت وقد أقلعت وهذا أعلاه. انتهى من كلام الراغب.

وقال: القرطبي في المفهم: اختلفت عبارات المشايخ فيها فقائل يقول إنها الندم، وآخر يقول: إنها العزم على أن لا يعود، وآخر يقول: الإقلاع عن الذنب، ومنهم من يجمع بين الأمور الثلاثة وهو أكملها غير أنه مع ما فيه غير مانع ولا جامع.

أما أولاً: فلأنه قد يجمع الثلاثة ولا يكون تائباً شرعاً إذ قد يفعل ذلك شُحًّا على ماله أو لئلا يُعَيِّرَهُ الناس به ولا تصح التوبة الشرعية إلا بالإخلاص، ومن ترك الذنب لغير الله لا يكون تائباً اتفاقاً.

وأما ثانياً: فلأنه يخرج منه من زنى مثلاً ثم جُبَّ ذكرُهُ فإنه لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى، وأما العزم على عدم العود فلا يتصور منه، قال: وبهذا اغتر من قال: إن الندم يكفي في حد التوبة، وليس كما قال؛ لأنه لو ندم ولم يقلع وعزم على العود لم يكن تائباً اتفاقاً، قال: وقال بعض المحققين: هي اختيار ترك ذنب سبق حقيقة أو تقديراً لأجل الله قال: وهذا أسَدُّ العبارات وأجمعها لأن التائب لا يكون تاركاً للذنب الذي فرغ لأنه غير متمكن من عينه لا تركاً ولا فعلاً، وإنما هو متمكن من مثله حقيقة، وكذا من لم يقع منه ذنب إنما يصح منه اتقاء ما يمكن أن يقع لا ترك مثل ما وقع فيكون متقياً لا تائباً، قال: والباعث على هذا تنبيه إلهي لمن أراد سعادته لقبح الذنب وضرره؛ لأنه سم مهلك يُفَوِّت على الإنسان سعادة الدنيا والآخرة ويحجبه عن معرفة الله تعالى في الدنيا، وعن تقريبه في الآخرة.

قال: ومن تفقد نفسه وجدها مشحونة بهذا السم فإذا وفق انبعث منه خوف هجوم الهلاك عليه، فيبادر بطلب ما يدفع به عن نفسه ضرر ذلك، فحينئذٍ ينبعث

منه الندم على ما سبق والعزم على ترك العود عليه. قال: ثم اعلم أن التوبة إما من الكفر وإما من الذنب، فتوبة الكافر: مقبولة قطعاً وتوبة العاصي: مقبولة بالوعد الصادق، ومعنى القبول: الخلاص من ضرر الذنوب حتى يرجع كمن لم يعمل.

ثم توبة العاصي إما من حق الله وإما من حق غيره، فحق الله تعالى يكفي في التوبة منه الترك على ما تقدم، غير أن منه ما لم يكتف الشرع فيه بالترك فقط بل أضاف إليه القضاء أو الكفارة، وحق غير الله يحتاج إلى إيصالها لمستحقها وإلا لم يحصل الخلاص من ضرر ذلك الذنب، لكن من لم يقدر على الإيصال بعد بذله الوسع في ذلك فعفو الله مأمول فإنه يضمن التبعات ويبدل السيئات حسنات. والله أعلم.

قلت: حكى غيره عن عبد الله بن المبارك في شروط التوبة زيادة فقال: الندم والعزم على عدم العود ورَدُّ المظلمة وأداء ما ضَيَّعَ من الفرائض، وأن يعمد إلى البدن الذي رَبَّاه بالسحت فيذيبه بالهم والحزن حتى ينشأ له لحم طيب، وأن يذيق نفسه ألم الطاعة كما أذاقها لذة المعصية. قلت: وبعض هذه الأشياء مكملات. وقد تمسك من فسر التوبة بالندم بما رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما من حديث ابن مسعود رفعه: «الندم توبة»[1] ولا حجة فيه لأن المعنى: الحض عليه وأنه الركن الأعظم في التوبة، لا أنه التوبة نفسها، وما يؤيد اشتراط كونها لله تعالى وجود الندم على الفعل ولا يستلزم الإقلاع عن أصل تلك المعصية، كمن قتل ولده، مثلاً وندم لكونه ولده وكمن بذل مالاً في معصية ثم ندم على نقص ذلك المال مما عنده.

واحتج من شرط في صحة التوبة من حقوق العباد أن يَرُدَّ تلك المظلمة بأن من غصب أَمَةً فزنى بها لا تصح توبته إلا برَدِّها لمالكها، وأن من قتل نفساً عمداً لا تصح توبته إلا بتمكين نفسه من ولي الدم ليقتص أو يعفو.

قلت: وهذا من جهة التوبة من الغصب ومن حق المقتول واضح، ولكن يمكن أن تصح التوبة من العود إلى الزنا وإن استمرت الأَمَةُ في يده ومن العود إلى القتل وإن لم يُمَكِّنْ من نفسه.

وزاد بعض من أدركناه في شروط التوبة أموراً أخرى: منها أن يفارق موضع المعصية، وأن لا يصل في آخر عمره إلى الغرغرة، وأن لا تطلع الشمس من

---

(١) رواه أحمد في المسند [١/ ٣٧٦] وابن ماجه [٤٢٥٢]. وصححه الألباني.

مغربها، وأن لا يعود إلى ذلك الذنب، فإن عاد إليه بان أن توبته باطلة.

قلت: والأول مستحب، والثاني والثالث داخلان في حد التكليف، والرابع الأخير عُزِيَ للقاضي أبي بكر الباقلاني. ويَرُدُّهُ الحديث الآتي بعد عشرين باباً وقد أشرت إليه في «باب فضل الاستغفار» وقد قال الحليمي في تفسير «التواب» في الأسماء الحسنى: أنه العائد على عبده بفضل رحمته، كلما رجع لطاعته وندم على معصيته فلا يحبط عنه ما قدمه من خير ولا يحرمه ما وعد به الطائع من الإحسان.

وقال الخطابي: «التواب» الذي يعود إلى القبول كلما عاد العبد إلى الذنب وتاب.

وروي عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِنَّ عَبْداً أَصَابَ ذنباً ـ وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذنباً ـ فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذنباً ـ أَوْ أَذْنَبَ ذنباً ـ فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذنباً وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذنباً، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ ـ أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثاً فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ[1].

قال الحافظ في الفتح: قال ابن بَطَّال: في هذا الحديث أن المُصِرَّ على المعصية في مشيئة اللّه تعالى، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له مُغَلِّباً الحسنة التي جاء بها، وهي اعتقاده أن له رباً خالقاً يعذبه ويغفر له، واستغفاره إياه على ذلك يدل عليه قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ولا حسنة أعظم من التوحيد، فإن قيل: إن استغفاره ربه توبة منه، قلنا: ليس الاستغفار أكثر من طلب المغفرة وقد يطلبها المُصِرُّ والتائب ولا دليل في الحديث على أنه تائب مما سأل الغفران عنه؛ لأن حد التوبة الرجوع عن الذنب والعزم أن لا يعود إليه والإقلاع عنه والاستغفار بمجرده لا يُفهَم منه ذلك. انتهى.

وقال غيره شروط التوبة ثلاثة: الإقلاع، والندم، والعزم على أن لا يعود. والتعبير بالرجوع عن الذنب لا يفيد معنى الندم، بل هو إلى معنى الإقلاع أقرب، وقال بعضهم: يكفي في التوبة تحقق الندم على وقوعه منه؛ فإنه يستلزم الإقلاع

(١) رواه البخاري [٧٠٦٨] ومسلم [٢٧٥٨/ ٢٩].

عنه والعزم على عدم العود فهما ناشئان عن الندم لا أصلان معه، ومن ثم جاء الحديث: «الندم توبة».

وقال القرطبي في المفهم: يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً للسان ليُحَلَّ به عقد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة، ويشهد له حديث: «خياركم كل مفتن تواب»[1] ومعناه الذي يتكرر منه: الذنب والتوبة، فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة، لا من قال: أستغفر الله، بلسانه وقلبه مُصِرٌ على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار.

قلت: ويشهد له ما رواه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس مرفوعاً: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه» والراجح أن قوله: «والمستغفر» إلى آخره موقوف وأوله عند ابن ماجه والطبراني من حديث ابن مسعود وسنده حسن[2] وحديث «خياركم كل مفتن تواب» ذكره في مسند الفردوس عن عليٍّ.

قال القرطبي: وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه.

قال النووي في الحديث: إن الذنوب ولو تكررت مائة مرة بل ألفاً وأكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته، أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته، وقوله: «اعمل ما شئت» معناه: ما دمت تذنب فتتوب غفرت لك.

وذكر في «كتاب الأذكار» عن الربيع بن خيثم أنه قال: لا تقل: أستغفر الله وأتوب إليه، فيكون ذنباً وكذباً إن لم تفعل، بل قل: اللهم اغفر لي وتب عليّ. قال النووي: هذا حسن وأما كراهية: أستغفر الله، وتسميته كذباً فلا يوافق عليه، لأن معنى أستغفر الله: أطلب مغفرته، وليس هذا كذباً، قال: ويكفي في رَدِّهِ حديث ابن مسعود بلفظ: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا

(١) مسند الشهاب [١٢٧١] عن عليٍّ رضي الله تعالى عنه.
(٢) رواه ابن ماجه [٤٢٥٠] وحسنه الألباني.

هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فَرَّ من الزحف»[(١)].

قلت: هذا في لفظ: «أستغفر اللّٰه الذي لا إله إلا هو الحي القيوم»، وأما «أتوب إليه» فهو الذي عنى الربيع رحمه اللّٰه أنه كذب، وهو كذلك إذا قاله ولم يفعل التوبة كما قال.

وفي الاستدلال للرَدِّ عليه بحديث ابن مسعود نظر لجواز أن يكون المراد منه ما إذا قالها وفعل شروط التوبة، ويحتمل أن يكون الربيع قصد مجموع اللفظين لا خصوص «أستغفر اللّٰه» فيصح كلامه كله واللّٰه أعلم.

ورأيت في الحلبيات للسبكي الكبير: الاستغفار طلب المغفرة إما باللسان أو بالقلب أو بهما، **فالأول**: فيه نفع لأنه خير من السكوت، ولأنه يعتاد قول الخير. **والثاني**: نافع جداً.

والثالث: أبلغ منهما لكنهما لا يمحصان الذنب حتى توجد التوبة فإن العاصي المصر يطلب المغفرة ولا يستلزم ذلك وجود التوبة منه إلى أن قال: والذي ذكرته من أن معنى الاستغفار هو غير معنى التوبة هو بحسب وضع اللفظ لكنه غلب عند كثير من الناس أن لفظ «أستغفر اللّٰه» معناه: التوبة، فمن كان ذلك معتقده فهو يريد التوبة لا محالة، ثم قال: وذكر بعض العلماء أن التوبة لا تتم إلا بالاستغفار لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] والمشهور أنه لا يشترط.

وقال النووي: اعلم أن كلّ من ارتكب معصيةً لزمه المبادرةُ إلى التوبة منها والتوبةُ من حقوق اللّٰه تعالى يُشترط فيها ثلاثة أشياء: أن يُقلع عن المعصية في الحال، وأن يندمَ على فعلها، وأن يَعزِمَ ألا يعود إليها.

والتوبةُ من حقوق الآدميين يُشترط فيها هذه الثلاثة، **ورابع**: وهو ردّ الظلامة إلى صاحبها أو طلب عفوه عنها والإبراء منها، فيجبُ على المغتاب التوبة بهذه الأمور الأربعة؛ لأن الغيبة حقّ آدمي ولا بدّ من استحلاله مَن اغتابه، وهل يكفيه أن يقول: قد اغتبتُك فاجعلني في حلّ، أم لا بُدّ أن يبين ما اغتابه به؟ فيه وجهان لأصحاب الشافعي رحمهم اللّٰه: **أحدهما**: يُشترط بيانُه، فإن أبرأه من غير بيانه لم يصحّ كما لو أبرأه عن مال مجهول.

والثاني: لا يُشترط لأن هذا مما يُتسامحُ فيه فلا يُشترط علمه بخلاف المال.

---

(١) رواه الترمذي [٣٥٧٧] وأبي داود [١٥١٧] عن بلال بن يسار بن زيد مولى النبي ﷺ عن أبيه عن جده وصححه الألباني، والحاكم [٢/ ١٢٨/ ٢٥٥٠] عن ابن مسعود.

والأوّل أظهرُ لأن الإنسانَ قد يسمحُ بالعفو عن غيبة دونَ غيبة، فإن كان صاحبُ الغيبةِ ميّتاً أو غائباً فقد تعذَّرَ تحصيلُ البراءة منها، لكن قال العلماء: ينبغي أن يُكثرَ الاستغفار له والدعاء ويُكثر من الحسنات.

واعلم أنه يُستحبّ لصاحب الغِيبة أن يبرئه منها ولا يجبُ عليه ذلك؛ لأن تبرّعٌ وإسقاطُ حقّ، فكان إلى خِيرته ولكن يُستحبّ له استحباباً متأكداً الإبراء ليخلّصَ أخاه المسلم من وبال هذه المعصية ويفوزَ هو بعظيم ثواب اللّه تعالى في العفو ومحبة اللّه سبحانه وتعالى، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وطريقهُ في تطييب نفسه بالعفو أن يذكُرَ نفسَه أن هذا الأمر قد وقعَ ولا سبيلَ إلى رفعه فلا ينبغي أن أُفوِّتَ ثوابَه وخلاصَ أخي المسلم وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. والآيات بنحو ما ذكرنا كثيرة.

وفي الحديث الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال: «.. اللّهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أخيهِ..»[١].

وقد قال الشافعي رحمه اللّه: من استُرضي فلم يرضَ فهو شيطان. وقد أنشد المتقدّمونَ في هذا المعنى:

قيلَ لي قد أساءَ إليكَ فلانٌ ... ومُقامُ الفتى على الذُلِّ عارُ
قلتُ قدْ جاءَنا وأحدَثَ عُذْراً ... دِيةُ الذنبِ عِندنا الاعتذارُ

فهذا الذي ذكرناهُ من الحث على الإبراء عن الغيبة هو الصواب. وأما ما جاء عن سعيد بن المسيب أنه قال: لا أُحَلِّلُ مَن ظلمني، وعن ابن سيرين: لم أُحرّمها عليه فأُحلِّلَها له لأن اللّه تعالى حرّم الغيبةَ عليه، وما كنتُ لأُحَلِّلَ ما حرّمه اللّه تعالى أبداً. فهو ضعيفٌ، أو غلطٌ، فإن المُبرئ لا يحلِّلُ محرّماً وإنما يُسقط حقاً ثبتَ له، وقد تظاهرت نصوصُ الكتاب والسنة على استحباب العفو وإسقاط الحقوق المختصّة بالمسقِط. أو يُحمل كلامُ ابن سيرين على أني لا أُبيح غيبتي أبداً وهذا صحيح فإن الإنسانَ لو قال: أبحتُ عرضي لمن اغتابني لم يَصرْ مباحاً بل يَحرمُ على كل أحد غِيبتُه كما يَحرم غيبة غيره.

وأما الحديث: «أيَعْجِزُ أحَدُكُمْ أنْ يَكُونَ كأبي ضَمْضَمٍ؟ كانَ إذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٣٨/٢٦٩٩] عن أبي هريرة.

قالَ إِنِّي تَصَدَّقْتُ بِعِرْضِي على النَّاسِ»[1] فمعناه: لا أطلبُ مَظلمتي ممّن ظلمني لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا يَنفعُ في إسقاط مَظلمة كانت موجودة قبل الإبراء.

وهذا الكتاب شذرات من فيض اللّه تعالى على شيخنا الإمام محمد متولي الشعراوي، جمعناها من كتبه وتسجيلاته ثمَّ شرحناها وعلقنا عليها، وتم ضبط أحاديثها وتخريجها على مصادرها، والحكم عليها صحة وضعفاً من خلال كلام علماء الحديث. واللّه أسأل أن ينفع بها قارئها وكاتبها وناشرها، وأن يجزي شيخنا الجليل عما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأن يجعل ثواب ذلك خالصاً له وفي ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون. إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه. وَصلِّ اللّهم على سيدنا محمد وآله والحمد للّه رب العالمين.

عبد اللّه حجاج

(١) رواه أبو داود [٤٨٨٦] عن قتادة رضي اللّه تعالى عنه، و[٤٨٨٧] عن عبد الرحمن بن عجلان وقال الألباني: صحيح مقطوع.

التوبة ضرورة لحركة الحياة

شرع الله تعالى التوبة رحمة لحركة الحياة كلها؛ لأنه إذا لم يكن هناك توبة لمرتكب المعصية أصبح كل من ارتكب ذنباً ـ ولو صغيراً مما يطلق عليه اللمم ـ مصيره إلى النار.

وإذا علم الإنسان مصيره النار مهما فعل، فإنه يستشري في الذنب، ويزداد في الإثم ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة. ولكن حين يعلم أي إنسان يخطئ أن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها[1] لا يزداد في إثمه ولا يتمادى في شروره.

إذن.. ففتح باب التوبة ليس رحمة للفرد فقط، بل هو رحمة للمجتمع كله؛ لأنها تجعل المجرم يكف عن إجرامه طمعاً فيما عند الله، ورغبة في العفو.

والله سبحانه وتعالى هو: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ [البقرة: ٣٧] والتواب صيغة مبالغة في قبول التوبة، والمعنى: أنه يقبل التوبة من عباده ويعفو، مهما تكرر الذنب ما دام العبد يرغب في الرجوع إلى الله تعالى[2].

---

(١) رواه مسلم [٢٧٥٩/ ٣١] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه.

(٢) روى مسلم [٢٧٥٨/ ٢٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، فيما يحكي عن ربه عزّ وجلّ قال: «أذنَبَ عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب! اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب! اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب! اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً. فعلم أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرت لك». ووافقه البخاري [٧٥٠٧].
قال الإمام النووي: «وهذه الأحاديث ظاهرة في الدلالة في أنه لو تكرر الذنب مائة مرة، أو ألف مرة، أو أكثر، وتاب في كل مرة، قُبلت توبته، وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحت توبته».

مسلم بشرح النووي [٩/ ٨٨]=

= قلت: ودليله في ذلك ما رواه مسلم [٢٧٦٦/٤٦]، والبخاري [٣٤٧٠] وابن ماجه [٢٦٢٢] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: إن النبي ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعةً وتسعينَ نفساً. فسأل عن أَعْلَم أهل الأرض، فَدُلَّ على راهبٍ. فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ، على رجل عالم. فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم. ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أُناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصّف الطريق أتاه الموت. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مُقبلاً بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم. فقال: قيسوا ما بين الأَرَضيْنِ فإلى أيتهما كان أدنى، فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

اللَّه تعالى يفرح بتوبة عبده

يقول اللَّه تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] ويقول رسول اللَّه ﷺ: «للَّه أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»(١).

وتخيل وأنت مسافر في صحراء جرداء، بعيدة تماماً عن أي عمران، ثم جلست لتستريح ومعك الجمل الذي تسافر عليه وعليه الماء والطعام وكل ما تملك من وسائل الحياة، ثم غفلت عن الجمل فانطلق شارداً وسط الصحراء، ولما تنبهت لم تجده ولم تعرف مكانه، عند ذلك تيقنت أنك هالك لا محالة، وفجأة وأنت في هذه الحالة من الغم والكرب ـ خوفاً من المصير الذي ينتظرك ـ وجدت الجمل أمامك فكيف تكون فرحتك؟ بلا شك تكون فرحة كبيرة جداً؛ لأنك وجدت ما ينجيك من الهلاك، فرحة هائلة عبَّر عنها الحديث الشريف، حتى إن صاحب الراحلة أخطأ في دعائه فقال: «اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك» وذلك من شدة فرحه.

(١) رواه مسلم [٧/٢٧٤٧] عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه.
وعنده [١/٢٦٧٥] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: قال اللَّه عزّ وجلّ: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، واللَّه للَّه أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة. ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإذا أقبل إلي يمشي أقبلت إليه أهرول».
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا الحديث متواتر عن النبي ﷺ رواه ابن مسعود، والبراء بن عازب، والنعمان بن بشير، وأبو هريرة، وأنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنهم.

أنواع التوبة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: التوبة نوعان: واجبة ومستحبة:

فالواجبة: هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور. وهذه واجبة على جميع المكلفين، كما أمرهم الله بذلك في كتابه وعلى ألسنة رسله.

والمستحبة: هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات. فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين. ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين: إما الكافرين وإما الفاسقين.

والتوبة: رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه.

فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما ظن كثير من الجهال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها، فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع، وإما مغضوباً عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته.

التوبة لابن تيمية [ص: ١٣، ١٤]

شرائط التوبة

وشرائط التوبة ثلاثة: الندم، والإقلاع، والاعتذار.

فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم.

فحينئذٍ يرجع إلى العبودية التي خلق لها. وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة. ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له.

فأما الندم: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به؛ إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه، وفي المسند «الندم توبة»[1].

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

وأما الاعتذار: ففيه إشكال، فإن من الناس من يقول: من تمام التوبة ترك الاعتذار؛ فإن الاعتذار مُحاجَّة عن الجناية، وترك الاعتذار اعتراف بها، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف. وفي ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه، وقد عتب عليه في شيء:

وما قابلتُ عُتْبَكَ باعتذار ... ولكنِّي أقولُ كما تقولُ

وأطرقُ بابَ عَفْوِكَ بانكسار ... ويحكمُ بيننا الخُلُق الجميلُ

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره وأزال عتبه عليه.

فتمام الاعتراف: ترك الاعتذار، بأن يكون في قلبه ولسانه: اللَّهُمَّ لا براءة لي من ذنب فأعتذر، ولا قوة لي فأنتصر، ولكني مذنب مستغفر، اللَّهُمَّ لا عذر لي، وإنما هو محض حقك، ومحض جنايتي، فإن عفوت وإلا فالحق لك.

والذي ظهر لي من كلام صاحب المنازل: أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف

---

(١) رواه أحمد في المسند [١/ ٣٧٦، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٣] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وقال الأرناؤوط: صحيح.

والمسكنة، وغلبة العدو، وقوة سلطان النفس، وأنه لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلاً به، ولا إنكاراً لاطلاعك، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعاً في مغفرتك واتكالاً على عفوك، وحُسْنِ ظَنٍّ بك، ورجاء لكرمك، وطمعاً في سعة حلمك ورحمته، وغرني بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المرخي عليّ، وأعانني جهلي، ولا سبيل لي إلى الاعتصام إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك، ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار، والاعتراف بالعجز، والإقرار بالعبودية. فهذا من تمام التوبة، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عزّ وجلّ، والله يحب من عبده أن يتملق له.

وفي الحديث: «تملّقوا لله»[1]، وفي الصحيح: «لا أحد أحب إليه العذر من الله» وإن كان معنى ذلك الإعذار؛ كما قال في آخر الحديث: «من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين»[2]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥، ٦]. فإنه من تمام عدله وإحسانه: أن أعذر إلى عباده، وألا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجة عليه، فهو أيضاً يحب من عبده أن يعتذر إليه، ويتنصل إليه من ذنبه، وفي الحديث: «من اعتذر إلى الله قبل الله عذره»[3]. فهذا هو الاعتذار المحمود النافع.

أما الاعتذار بالقدر: فهو مخاصمة لله، واحتجاج من العبد على الرب، وحمل لذنبه على الأقدار، وهذا فعل خصماء الله، كما قال بعض شيوخهم في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤].

قال: أتدرون ما المراد بهذه الآية؟

قالوا: ما المراد بها؟

قال: إقامة أعذار الخليقة.

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه، وإنما المراد بها: التزهيد في هذا الفاني الذاهب، والترغيب في الباقي الدائم، والإزراء بمن آثر هذا المزين

---

(١) لم أجده فيما تحت أيدينا من مراجع.

(٢) رواه مسلم [١٤٩٩/ ١٧] عن سعد بن عبادة رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو يعلى [٧/ ٣٠٢/ ٤٣٣٨] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

واتبعه، بمنزلة الصبي الذي يُزَيَّن له ما يلعب به فيهش إليه ويتحرك له، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين، فلم يقل: «زينا للناس» واللَّه تعالى يُضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وفي الحديث: «بعثت هادياً وداعياً، وليس إليَّ من الهداية شيء، وبعث إبليس مغوياً ومزيناً، وليس إليه من الضلالة شيء»، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فإن إضافة التزيين إليه قضاءً وقدراً، وإلى الشيطان تسبباً، مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زينه الشيطان لهم. فمن عقوبة السيئة: السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة: الحسنة بعدها.

والمقصود: أن الاحتجاج بالقدر منافٍ للتوبة. وليس هو من الاعتذار في شيء، وفي بعض الآثار: «إن العبد إذا أذنب، فقال: يا رب، هذا قضاؤك، وأنت قدرت عليَّ، وأنت حكمت عليَّ، وأنت كتبت عليَّ. يقول اللَّه عزَّ وجلَّ: وأنت علمت، وأنت كسبت، وأنت أردت واجتهدت، وأنا أعاقبك عليه.

وإذا قال: يا رب، أنا أخطأت، وأنا اعتديت، وأنا فعلت، يقول اللَّه عزَّ وجلَّ: وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت، وأنا أغفر لك.

وإذا عمل حسنة، فقال: يا رب أنا عملتها، وأنا تصدقت، وأنا صليت، وأنا أطعمت، يقول اللَّه عزَّ وجلَّ: وأنا أعنتك. وأنا وفقتك.

وإذا قال: يا رب أنت أعنتني ووفقتني، وأنت مننت عليَّ.

يقول اللَّه تعالى: وأنت عملتها، وأنت أردتها، وأنت كسبتها».

فالاعتذار اعتذاران: اعتذار ينافي الاعتراف. فذلك منافٍ للتوبة.

واعتذار يقرر الاعتراف، فذلك من تمام التوبة.

مدارج السالكين [١/ ٢٠٢: ٢٠٥]

حقائق التوبة

قال صاحب المنازل: وحقائق التوبة ثلاثة أشياء:

تعظيم الجناية.

واتهام التوبة.

وطلب أعذار الخليقة.

يريد بالحقائق: ما يتحقق به الشيء، وتتبين به صحته وثبوته، كما قال النبي ﷺ لحارثة: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟»[(١)].

فأما تعظيم الجناية: فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها. وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها. فإن من استهان بإضاعة فلس ـ مثلاً ـ لم يندم على إضاعته، فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه وعظمت إضاعته عنده.

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء:

تعظيم الأمر، وتعظيم الآمر، والتصديق بالجزاء.

وأما اتهام التوبة: فلأنها حق عليه، لا يتيقن أنه أدّى هذا الحق على الوجه المطلوب منه، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها لم تقبل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنها توبة عِلَّةٍ وهو لا يشعر بها، كَتَوْبَةِ أرباب الحوائج والإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال، لا خوفاً من ذي الجلال، أو أنه تاب طلباً

---

(١) روى ابن أبي شيبة في المصنف كتاب [٢٧] الإيمان والرؤيا، باب [٥] حديث رقم [٧٤] عن زبيد قال، قال رسول الله ﷺ: «كيف أصبحت يا حارث بن مالك؟ قال: أصبحت مؤمناً حقًا، قال: إن لكل قول حقيقة فما حقيقة ذلك؟ قال: أصبحت عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي قد أبرز للحساب، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة، وكأني أسمع عواء أهل النار، قال: فقال له: عبد نور الإيمان في قلبه، إن عرفت فالزم».
وانظره في ترجمة حارثة بن سراقة في أُسد الغابة لابن الأثير [١/ ٦٥٠/ ٩٩٣]، والإصابة لابن حجر العسقلاني [١/ ٥٩٧/ ١٤٨٠].

للراحة من الكد في تحصيل الذنب، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفاً من اللّه، وتعظيماً له ولحرماته، وإجلالاً له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، وعن البعد والطرد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة، فهذه التوبة لون، وتوبة أصحاب العلل لون.

ومن اتهام التوبة أيضاً: طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه قد أُعطي منشوراً بالأمان، فهذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جمود العين، واستمرار الغفلة، وألا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة.

مدارج السالكين [١/ ٢٠٥: ٢٠٦]

علامات صحة التوبة

التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين. فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً. وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠]. قال: تقطعها بالتوبة.

ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه، وهذه حقيقة التوبة؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفاً من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفاً، تقطع في الآخرة إذا حقّت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين، فلا بدّ من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً. كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدًّا، ولا عنه غناء، ولا منه مهرباً، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه، وقوة سيده، وذله، وعزّ سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد! وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جَبْره بها، وما أقربه بها من سيده!

فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل،

والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له. فللّه ما أحلى قوله في هذه الحال: «أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل. وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلّ لك قلبه».

يـا مَـنْ ألـوذُ بـه فـيـمـا أؤمّـلُـه ... ومَـن أعـوذ بـه مـمـا أحـاذرُه

لا يجبُر الناس عظماً أنت كاسِرُه ... ولا يهيضون عظماً أنت جابرُه

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها.

فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات: في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها، فعندهم ـ من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم، وصولة طاعاتهم، ومنتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابع ذلك ـ ما هو أبغض إلى اللّه، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك.

فإن تدارك اللّه أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها؛ ليكسر بها نفسه، ويعرفه قدره، ويذله بها، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه، فهي رحمة في حقه، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح، وإقبال بقلوبهم إليه، فهو رحمة في حقهم، وإلا فكلاهما على خطر.

مدارج السالكين [١/ ٢٠٦: ٢٠٨]

جزاء المعرض عن التوبة

يقول الله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤] إذن.. فجزاء من يعرض عن التوبة ويرفض أن يعترف بخطئه، عذاب أليم ليس في الآخرة فقط، ولكن في الدنيا والآخرة.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يتوهمه بعض الناس من ذوي العقول السقيمة بأن العذاب في الدنيا فقط؛ ولكن هناك أرض في الدنيا وأرض في الآخرة هي أرض الميعاد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

إذن.. فكلمة الأرض تعطينا صورتين: صورة في الدنيا وصورة الآخرة، ولذلك فالعذاب في الدنيا على هذه الأرض، وفي الآخرة على أرض الحشر والحساب، ثم النار موعدهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ الولي: هو القريب منك الذي تفزع إليه عند الشدائد، ولا تفزع عند الشدائد إلا لمن تطمع أن ينصرك، أو لمن هو أقوى منك، أما النصير: فهو من تطلب منه النصرة، وقد يكون من البعيدين عنك ولا تربطك به ولاية.

إذن، فلا الوليّ القريب منك، ولا القريب الذي قد تفزع إليه لينصرك يستطيعان أن يفعلا شيئاً، وذلك لتعلم أنه لا نجاة من عذاب الله إلا بالإنابة إليه، ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه سبحانه وتعالى[1].

---

(١) روى البخاري [٦٣١١]، ومسلم [٥٦/٢٧١٠] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت؛ مت على الفطرة، فاجعلهن آخر ما تقول».

تكفير الذنوب

بعد أن قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤] وهكذا كشف الله تعالى وجهاً من حكمته سبحانه في القيام بالصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل وهي أن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر[1]، ولكن ما هي الحسنة وما هي السيئة؟ الحسنة هي ما رتب الله تعالى على عملها ثواباً، والسيئة هي ما جعل الله سبحانه على عملها عقاباً.

وأولى حسنات الإيمان أن نشهد أن لا إله إلا الله فَتُذْهِبُ حسنة الإيمان سيئةَ الكفر.

وقال بعض العلماء: إذا كان الإيمان حسنة أذهبت سيئة الكفر؛ فيا من تقول: إن المؤمن الذي عمل الذنوب الكبائر سيخلد في النار، ما الفرق بين إنسانٍ عصى وهو مؤمن وإنسانٍ عصَى وهو كافر؟ وإذا كان الإيمان حسنة أذهب الله تعالى بها الكفر، ألا يذهب بها سبحانه ما هو دون الكفر؟ نقول: بلى؛ إن الإيمان حسنة أذهب الله تعالى بها سيئة الكفر، فالمؤمن العاصي مهما كانت معصيته لا يخلَّد في النار؛ لأنه ليس من العدل المساواة بين من آمن بالله تعالى ولكنه حدث عنده بعض التقصير في أمور، وبين من لم يؤمن بالله أصلاً.

إذن.. كلمة الإيمان قد صنعت حسنة كبيرة، بأن أذهبت الكفر أولاً فمنعت خلود المؤمن في النار ثانياً، ولذلك من عقيدة الفرقة الناجية التي جاءت في أحاديث رسول الله ﷺ أن المؤمن العاصي لا يخلد في النار، وإن كان يدخلها بقدر ما ارتكب من المعاصي، إذا لم تتداركه رحمة الله تعالى بأن تكون حسناته أكثر في ميزانه من سيئاته، أو يشفع الله تعالى فيها، أو تناله شفاعة النبي ﷺ، أو يَشْفَعُ فيه أحد من المأذون لهم في الشفاعة.

---

(١) أخرج مسلم [٢٣٣/ ١٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».

والحسنات هي الفرائض التي فرضها الله تعالى على عباده، إذن.. فالحسنات التي هي الفرائض تذهب بالسيئات التي هي المعاصي، وما يوجب عذاب الله. ولكن هناك أحاديث وردت في غير الفرائض، منها مثلاً: صوم يوم عرفة يكفر السنة الماضية والباقية[1] ورسول الله ﷺ قال: إن الإنسان الذي يستقبل نعمة الله بقوله: الحمد لله الذي رزقني بغير حول مني ولا قوة، والحمد لله الذي كساني من غير حول مني ولا قوة، هذا الحمد يكفر الذنوب، وإذا قلت: سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله تكفر الذنوب.

إذن.. فالحسنات تكون فرضاً وتكون غير فرض، وكلها تحسب حسنات؛ والسيئات هي عمل توعَّدَ اللهُ من يعمله بالعقوبة، فكيف تُذهب الحسنات السيئات ما دامت السيئات عملاً؟ وهل العمل إذا وقع يرفع؟ كيف تُذهب الحسنة السيئة؟

نقول: إن السيئة إذا وقعت لا ترفع؛ لأن الذهاب إما أن يكون ذهاب فعل، وهذا ليس متأتياً، وإما أن يكون ذهاب أثر ذلك الفعل، وهذا هو الذي يحدث، فالله سبحانه وتعالى يمحوه من كتاب سيئاتك.

إذن.. فإذهاب الفعل في ذاته لا يحدث؛ لأن الواقع لا يرفع وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ليس معناه أنها تمنعها؛ لأن السيئة وقعت فعلاً، ولكن السيئة إذا وقعت فإن الذي يترتب عليها من عقاب هو الذي يرفع بموجب فعل الحسنات.

❁ ❁ ❁

(١) جزء من حديث رواه مسلم [١١٦٢/١٩٧] عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله تعالى عنه.

تفريج الهموم

يروى أن رجلاً كان يسير في الليل، فرأى الجنود الذين يراقبون الطرقات، فقال الرجل في نفسه: قد يظلمني الجند بسؤالي أين كنت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ لذلك سأجري منهم وأختفي في أي مكان، وجرى الرجل واختبأ في مكان خرب، وداهم الجند ذلك المكان ووجدوا فيه قتيلاً، وكانت كل الملابسات تشير إلى أن الرجل هو القاتل، واقتاد الجند الرجل إلى الحاكم. فماذا كان من الرجل؟ لقد طلب الرجل أن يتوضأ وأن يصلي ركعتين لله، وأمهله الحاكم، فصلى الرجل ودعا الله قائلاً: «اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد لي على براءتي إلا أنت، وأنت أمرتنا ألا نكتُم الشهادة فأسألك ذلك في نفسك».

لقد كان الرجل يؤمن يقيناً بأن الله قد أمر المؤمنين ألا يكتموا الشهادة؛ لذلك سأل الرجل ربه الحق أن يظهر براءته، وعلى الفور دخل على الحاكم فجأة رجل وقال: أنا القاتل، فتعجب الحاكم، وسأل الرجل الذي جاء ليقر أنه قاتل: لماذا تعترف على نفسك ولم يرك أحد؟

قال القاتل: والله ما قررت، إنما جاء هاتف فأجرى لساني بما قلت.

القاتل يعترف أن هاتفاً قد جاء إليه فحرك خواطره فسار إلى الحاكم ليعترف أنه القاتل، وهنا قام وليُّ المقتول وصاحب الحق في الدية، وكان هو ابن القتيل ليقول: «اللَّهُمَّ إني أُشْهِدُك أنني أعفيت قاتل أبي من ديته».

إن تلك الحكاية تحكى للدلالة على طلاقة قدرة الحق سبحانه.

مظلوم بريء يصلي ركعتين للخالق كما علمنا رسول الله ﷺ فقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى[1]، إن الإنسان عندما يقف بين يدي ربه ويناجيه فالحقُّ سبحانه هو القادر وحده على أن يعطي الإنسان مسألته لأننا جميعاً في قبضته يفعل بنا ما يشاء وقت ما يشاء، لا رادَّ لأمره، ولا معقب لحكمه، فعلينا أن نَصْدُقَ

---

(١) رواه أبو داود [١٣١٩] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [١١٧١]، وأحمد في المسند [٥/ ٣٨٨].

في التوجه إليه، ونخلص النية في الطلب، ونكثر في الوقوف بين يديه، فالصلاة لها شأن عظيم، فهي ركن الإسلام الوحيد الذي فرض بالأمر المباشر من الله تعالى لرسوله ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج[(١)].

---

(١) انظر كتاب: شرح حديث الإسراء والمعراج للشيخ الإمام، باب: الصلاة هدية القرب للقرب، وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي.

وقال الإمام القصري: الصلاة هي أكبر شعب الإسلام بعد الشهادة لله وللرسول، فأما كونها من شعب الإسلام فَبيّن في حديث جبريل وغيره من الأحاديث؛ كيف وقد روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»[(١)].

وصفتها وما تحتاج إليه من أمور كل ذلك مكتوب في كتب الفقه، وأقل ما يجزئ العبد في فعلها ما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه وجماعة من الرواة: أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فَسَلم على رسول الله ﷺ فَرَدّ رسول الله ﷺ عَليه السلام. قال: «ارجع فصل فإنك لم تصل». فرجع الرجل فصلى كما كان صلى، ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه، فقال رسول الله ﷺ: «وعليك السلام» ثم قال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» حتى فعل ذلك ثلاث مرات. فقال الرجل: والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا، علمني.

قال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»[(٢)].

ومنها: فرائض كالصلوات الخمس، وصلاة الجنائز، وفي الآثار: أن اتباع الجنائز من الإيمان، فهي شعبة من الإيمان ـ أعني اتباع الجنائز ـ لأنها تذكر بالآخرة، والوقوف بين يديه سبحانه والجزاء والثواب والعقاب، لكنّا اختصرنا ذكرها؛ لأنها من جملة الصلوات فلم نفرد لها باباً.

ومنها: سنن كصلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والوتر وركعتي الفجر.

ومنها: فضائل كسائر النوافل.

وتأدية الصلاة وإقامة ركوعها وسجودها وتلاوتها ظاهراً إسلام. =

---

(١) رواه الترمذي [٢٦٢١]، وابن ماجه [١٠٧٩]، والبيهقي في السنن الكبرى [٣/ ٣٦٦]، وأحمد في المسند [٥/ ٣٤٦]، والحاكم في المستدرك [١/ ٦، ٧]، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢١١٣].

(٢) رواه البخاري [٧٥٧]، ومسلم [٣٩٧/ ٤٥]، وأبو داود [٨٥٦]، والترمذي [٣٠٣]، والنسائي [٢/ ١٢٤] وابن ماجه [١٠٦٠] وأحمد في المسند [٢/ ٤٣٧].

= فأما روح الصلاة وفهم معانيها في مقام الإيمان ومقام الإحسان، فإن أولها بعد التطهير والنظافة والدخول على الملك، الانتهاض إلى موضع الصلاة، وهي البقعة المقدسة من مسجد مبني وغير مبني، فالمراد بالانتهاض والمشي: انتهاض القلب والباطن وسيره ودخوله إلى عالم الملكوت وخروجه عن عالم الدنيا؛ حتى يدخل إلى متعبد الملائكة الذي وجب الإيمان بهم في العالم المقدس، الذي ليس فيه ما يشغل عن الصلاة.

ثم القيام إلى الصلاة، والمراد: قيام القلب إلى أعلى عليين بين يدي الله تعالى.

ثم إحضار النية، والمراد بها: التقرب إلى الله بالصلاة، وإخراج ما في القلب سوى من أقبل عليه، وذلك إشراف على من توجه إليه وغيبه من غيره، فإذا أشرف على المطلوب برفع الحجب الشاغلة عن القلب وقع له تعظيم المتجلى له، وخالطته حرمته واحترامه، فحينئذٍ يحرم بتكبيرة الإحرام؛ لأنه في موضع الاحترام والحرمة، فيحرم عليه النظر إلى غيره والاشتغال بسواه فيقول: «الله أكبر» من أن يقبل على غيره أو يلتفت له من أجل ما عرف من جلالة القدر وعظيم الخطر، أخذ في الثناء على الله بالفاتحة فيقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي هو على ما هو عليه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: سيد العالمين فتتجلى له صفة السيادة لله التي استعبد بها العالمين على كثرتهم، ويثني عليه بصفاته، ويناجيه بكلامه، فيفهم من كلامه ومحادثته مع الله بفاتحة الكتاب والسورة ما يوجب له الخضوع بين يديه، فيركع لزيادة التعظيم بشهادة أوصاف المتكلم معه، فيقول: «الله أكبر» منحطًا للركوع أي: أكبر مما وقع في نفسي من تعظيمه.

والمراد من ركوع الجسد: خضوع النفس والروح في مقام الإيمان والإحسان بين يدي كبرياء الجليل العظيم.

ولذلك أُمر أن يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» لما شاهد من معنى التعظيم الذي خضع له فيرفعه الله تعالى بكرمه إلى حالته الأولى التي هرب منها إلى الركوع؛ لأن من تواضع لله، أي: لأجل عظمة الله، رفعه الله إليه، فإذا رفعه إليه شاهد العبد نعمة الله عليه في رفعه، فيبتدئ بالحمد والثناء فيقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً» فيجد في وقوفه طمأنينة حلاوة المزيد، والنعمة التي رفعه الله بها، وهي استدعاؤه إلى القيام فخر ساجداً شاكراً لما أولاه، فيضع وجهه على الأرض ظاهراً ونفسه وروحه تحت الثرى الذي ليس وراءه في السفل منتهى إلا نفوس العارفين والأولياء؛ لأنهم لما هو عليه من الأسماء الحسنى والصفات العُلى شهداء، فيضع نفسه تحت كل تحت، ولذلك ليس وراء السجود منتهى في التواضع والتكبير مستصحب له، ومعناه، أي: الله أكبر مما شاهدت ووقع في نفسي من تعظيمه وأعلى.

فإذا وضع في السجود نفسه أسفل من كل سفل، بالمعنى الذي هو الذل، شاهد من سفله علاء ربه فقال: «سبحان ربي الأعلى» فاستدعاه ربه للرفوع والقرب من البعد=

= والمنزل الذي أنزل نفسه في سجوده.

ومعنى التسبيح في الركوع والسجود: تنزيه المركوع له والمسجود له من حالة الركوع والسجود، أي: سبحان من هو بخلاف حالة الركوع والسجود.

فلما استدعاه للرفوع قعد بالعجز بين يديه؛ لأنه لم يطق القيام لما شاهد في السجود من الإجلال والإعظام، فقعد بين يديه بالسكينة والعجز وأقرّ بالعجز له أن يقوم بشيء من حق قدر ربه، ولذلك أمر أن يقول في قعوده بين السجدتين: «رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم»، فيجد رحمة الله قد غشيته، والمغفرة قد عمرته، لأنه تجلى له بوصف زائد على الوصف الأول من أجل أن الرحمة مقرونة بالضعف ومسرعة إلى الاستكانة، فزاد سجوداً آخر بحكم وصف آخر، فعاد بالتواضع الذي هو المراد من السجود، حتى لو وجد أن يضع نفسه في أسفل مما وضعها فيه لوضعها وقد وجد الله مع كل رفع وخفض، فإن الواجب على كل عبد أن يضع نفسه من التواضع في خلاف ما هو الله عليه من الجلال والعظمة، وذلك لا يمكن أبد إلا مع التجلي وزيادة التعظيم، فكلما زاد تجلي الصفات زاد التواضع بقدر ذلك أبداً.

وكذلك لما زاد الإكرام زاد الشكر والثناء والتجلي دائماً أبد الآبدين.

وكذلك التواضع دائم أبد الآبدين، والشكر والثناء وجميع ما يليق بتجلي أوصاف الباري، والحمد لله على ما هو عليه. ثم يدعوه ربه إلى الاقتراب منه، وهو معنى القيام إلى الركعة الثانية، فيجري له ما جرى له في الأول بحكم الزيادة؛ لأن الصلاة إنما هي ركعة واحدة فيها تمت معاني الصلاة وغير ذلك من الركعات تكرير، فلا يزال ذلك دأبه مع مولاه من فهم خطابه، وشهود أوصافه في قيامه وانحطاطه، ورفوعه وأذكاره وسجوده، وجلوسه إلى آخر صلاته حتى يمتلئ ظاهره وباطنه نوراً وبركة ورحمة وسروراً وتواضعاً وحياءً، وغير ذلك مما لا يحصى من أحوال المصلين العارفين الخاشعين، فعند ذلك يقعد في آخر صلاته، فيأخذ في التشهد والشهادة لله بما هو له أهل والثناء كما يجب، وتفرد التحية والملك له، والتزكية والتنزيه والمدح لبارئه بقول: «التحيات لله الزاكيات لله الطيبات»[1].

وتفرد العبودية له بقوله: «الصلوات لله» ويسلم على أكرم الوسطاء الذي هداه الله به إلى ما هو فيه محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقر بكل ما جاء به من عند الله ويصلي عليه. فإذا فرغ من الإقرار والشهادة بكل ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام من الإيمان من الغيوب والدعاء والسؤال، فعند ذلك تمت له النعم بتمام الصلاة وكمالها، ووجب التحلل منها بتمامها، فأمر بالخروج إلى عالم الحس والملك فعند ذلك قال: =

(١) رواه الترمذي [٢٨٩]، وأبو داود [٩٧١]، وابن ماجه [٨٩٩] والنسائي [٢/ ٢٣٧]، وأحمد في المسند [١/ ٤١٣].

= «السلام عليكم»؛ لأنه كان في الحضرة العلية خارجاً عن عالم الحس مودعاً له، كما قال محمد عليه الصلاة والسلام «صل صلاة مودع»[(١)]. أي: لأنه خارج عن هذا العالم إلى الحضرة العلية، فإذا قدم على هذا العالم وشاهد من حوله من الأملاك والإنس قال: «السلام عليكم» فيسلم على من على يمينه وشماله، وقد حل له ما حرم عليه قبل ذلك، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «تحريمها التكبير وتحليلها التسليم»[(٢)].

فمن صحت له مثل هذه الصلاة وجبت له الكرامة عليها، ومن اعترضه الوسواس فليجاهد يكتب له أجر المجاهد إذا فاتته معية الإحسان، ومن اقتطعته الغفلات أمثالنا، وعُدم النصيب الأوفر ومشاهدة المذكور الأكبر كتب له ما عقل، وذلك فضل عظيم من الله؛ لأن صلاته كانت في موجب الأدب أسرع إلى العقوبة منها أن يكتب له ما عقل؛ إذ لا يدري بين يدي من هو حتى يعرض إلى غيره بقلبه وهو واقف راكع ساجد بجسده. فعليه أن يكثر التنفل؛ ليجبر ذلك النقص، فإنه مطالب به كما ورد: أن النوافل جبر الفرائض؛ لأنه لم يؤدها على الوجه الذي يجب والمعنى الذي أمر به، ولم يكلف الله الخلق من العبادة إلا ما يطيقون، لكن شُغْلهم بغير ذكر الله حرمهم واقتطعهم عما افترض عليهم. ونسأل الله الكريم أن يتغمدنا برحمته، ويتجاوز عن ذنوبنا وتقصيرنا برحمته، فلو لم تكن لنا ذنوب إلا التقصير في أداء الفرائض لكان كافياً. فهذا هو روح الصلاة من حيث المعنى.

وقد انتظم فيما تقدم من الكلام المقامات الثلاثة من الإسلام والإيمان والإحسان. فافهم. وأما فهم الصلاة من جهة تركيبها وتفاصيل أعضائها وهيئاتها، فإنها على صورة عبادة العالم الكلي، وعلى هيئة صلاة العابدين فيه.

فالقيام إلى الصلاة ليكون مع الذين يعرجون إلى الله تعرج الملائكة؛ ليكون مع الراكعين الخاضعين، والرفوع ليكون مع الصاغرين والسجود ليكون مع الساجدين والفكر والجولان بالفهم والعقل ليكون مع السائحين السابحين الدائرين والحضور ليكون مع الحاضرين الروحانيين، ووجود الراحة والنعيم بها ليكون مع الملائكة المقربين المشتاقين المحبين، والخشوع ليكون مع الخائفين والمكروبين، والمجاهدة بالأذكار ليكون راجماً للشياطين كالفلكيين، وإلقاء السمع مع المراقبين ورمز المعاني في دعاء الفهم ليكون مع الحافظين الكاتبين. ومع هذا كله فلا يقوم بشيء من حق الله عزّ وجلّ لعظيم ما هو الله عليه من جلال القدر وعظيم الخطر، لكن يجد الراحة في شهود =

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ٢٢٩]، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين [٣/ ١٦١]، والمنذري في الترغيب والترهيب [٤/ ٢٤٧] والألباني في الصحيحة [١٩١٤].

(٢) أورده الزيلعي في نصب الراية [١/ ٣٠٧]، وابن عبد البر في التمهيد [٩/ ١٨٢]، والقرطبي في التفسير [١٩/ ٦٢]، والهيثمي في مجمع الزوائد [٢/ ١٠٤].

= المنة؛ إذا هو ربه على ما هو عليه من أوصافه ومع ذلك استدعاه إلى أن يكون من عباده المؤمنين، فيستشعر في نفسه ذلك ويقول: كيف ذكرني هذا الملك العظيم في نفسه حتى ينزل من جلال كبريائه إلى صفات جناته ورحمته حتى كلمني بكلامه، واستدعاني لأن أكون من جملة المصلين من عباده؟! فينوي ويتمنى ويود في نفسه أن لو كان تقرب إليه بعبادة الخلق أجمعين على غاية الصفاء لو قدر على ذلك، فبهذا تفهم قوله: «نية المؤمن خير من عمله»[(١)].

ثم يشهد عجزه وتقصيره عن ذلك، فيرجع إلى رؤية التقصير والاستغفار من قلة القيام ببعض الواجب، ولذلك كان رسول الله ﷺ يستغفر بعد كل صلاة مراتٍ، وورد ذلك في الصحيح، فيتوب من الحسنات كما يتوب العاصي من السيئات؛ لأن: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ولذلك تقول الملائكة يوم القيامة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، على صفاء عبادتها من شوب الكدورات، وهذا المعنى الذي تقوله الملائكة هو الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[(٢)]. مع اجتهاده وصفات أحواله، وليس معناه أن العمل ليس ينفع فيكون قوله محرضاً على ترك العمل، بل قوله هذا مرغب في الاجتهاد لجميع ما يقرب إلى الله تعالى فنبه عليه الصلاة والسلام على عظيم حق الله تعالى الموجب لرؤية التقصير.

فالعبادات كلها لها وجهان، تنظر منهما مرة بنظر من مقام العبودية ومشاهدة الربوبية، وهو من هذا الوجه الذي ذكرناه، فتعرف مقدار المعبود، وما تقع عبادتك في حقه وجلالة قدره، فتكون عبادة الخلق أجمعين في ذلك أقل من غرز إبرة في بحر لجّي فيولّد هذا النظر الإجهاد والانكسار والخضوع والذلة والفقر إلى الله، وجميع صفات العبودية الحسنى، التي ساعة واحدة منها خير من عبادة ستين سنة. ومرة ينظر من مقام المنة، وكيف ذكر الملك الأكبر الذي استعبد العرش بما حوى في نفسه لهذا العبد الذي لا يدري من هو في كثرة عباد الله ومماليكه، وكيف ارتضاه للإيمان به، واستدعاه لعبادته ومناجاته وللقرب منه حتى يجعله من جلسائه، كما قال: أنا جليس من ذكرني فيتولد من هذا النظر أيضاً أحوال كريمة، لا يعلم حقيقتها إلا العارفون مثل الحياء الكائن =

(١) رواه الطبراني في الكبير [٦/ ١٨٥/ ٥٩٤٢]، وهو في مسند الشهاب [١/ ١١٩/ ١٤٨] وقال الهيثمي في مجمع الزوائد [١/ ٦١] ورجاله موثقون إلا حاتم بن عباد بن دينار الجرشي، لم أر من ذكر له ترجمة وقال [١/ ١٠٩]: وفيه حاتم بن عباد بن دينار، لم أعرفه وبقية رجاله ثقات، وقال المناوي: أطلق الحافظ العراقي أنه ضعيف من طريقه.

(٢) رواه مسلم [٢٨١٦/ ٧٣]، وأحمد في المسند [٢/ ٥٠٩] واللفظ له.

= عن الحضور، والشكر الحادث عن رؤية المنة، والمحبة المتولدة عن إحسان الله.
إلى غير ذلك مما يشرحه الله في قلوب المختصين بهذا المقام، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي ذكر الله للعبد في نفسه أكبر من كل ما يتقرب به إليه، فعلى هذين الوجهين من النظر درج العارفون في علومهم وأعمالهم، وبهما تزكو الأعمال عند الله، نسأل الله الكريم أن يَمُنَّ علينا بما مَنَّ عليهم في الدنيا والآخرة إنه ولي ذلك والقادر عليه.
واعلم أن الوجود كله بأجزائه مُصلٍّ لله بدوام وجود الوجود، لا ينفك عن الصلاة، فإنه في مقام العبودية لله. فمن أدام النظر رأى الوجود كله ظاهراً وباطناً مصلياً. ومن ترك الصلاة فقد خالف الخليقة كلها، ولذلك يحشر مع فرعون وهامان كما ورد في بعض الأخبار: أن تارك الصلاة يحشر مع فرعون وهامان؛ لأنه تأبى من العبودية والتواضع لله كما فعل فرعون. فافهم.
فإن الذي لا يخضع لأحد هو الله وحده، فمن صلى بجسده وفعل أركان الصلوات كما أمر ظاهراً، وأنزل نفسه مع كل ركن منها ومعنى من معانيها الباطنة، وفهم روحه وعقله تلك المعاني، وشهد المراد بكل ركن منها ومعنى من معانيها؛ فقد صلى بجسد، وفعل أركان الصلوات كما أمر بظاهره وباطنه وجملته في عالم الحس ومقام الإسلام، وفي عالم الغيب ومقام الإيمان، وفي غيب الغيب ومقام الإحسان، ووجد طعم المعاني الثلاث.
مَنَّ الله علينا وعليكم بالكمال في كل شيء. آمين بِمَنِّه ورحمته، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

شعب الإيمان [ص: ١١٩ ـ ١٢٦]

الكسل عن الصلاة
علامة من علامات النفاق

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢] كيف يقومون إلى الصلاة كسالى؟ إن الغايات من الأحداث هي التي تضفي على الجوارح الإقبال على الأحداث، فإذا كان الحدث الذي تقبل عليه حدثاً تحبه فأنت تقبل عليه بكل اشتياق ولهفة، ولذلك يقيسون لهفة اللقاء فهي التي تحدد درجة المحبة.

ولنفرض مثلاً أن رجلاً وزوجته يتقابلان بعد طول غياب ما الذي يبين حد الود بينهما؟ إن لحظة اللقاء تبين ما بينهما من مودة، فإن كانت المسافة بينهما عشر خطوات فكم خطوة خطاها الاثنان وبأية سرعة؟ إنما قد يسرعان باللّهفة فيقطعان الخطوات العشر في ثلاث خطوات مثلاً، وهذا معناه: تقصير زمن اللقاء، وأيضاً ما الكيفية التي يتم بها السلام؟ هل يسلم أحدهما على الآخر ببرود، أم بنصف ود أم بود كبير أم بود مصحوب بلهفة وعناق؟ ثم ما المدة التي يقع خلالها الاحتضان هل هي دقيقة أم دقيقتان أم ثلاث؟

إذن.. فالذي يبين قيمة الود هو التلهف في المدة، وهذه العناصر الثلاثة أخذها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين البشر، وقديماً كان المتيمون بالنساء يسترون في السلام مودتهم.

وقيل: إنك إذا أردت أن تعرف المودة بين رجل وامرأة ومدى لهفة كل منهما على الآخر، وتحكم بذلك، فلا بدّ أن تعرف ما الكيفية التي يتم بها اللقاء؟ فإذا ما صافح الرجل المرأة.. فهل يصافحها بتلهف؟ وهل تبادله هذه اللّهفة؟ فإن وجدت الكف مفرودة للمصافحة فقط فهذا سلام عادي، أما إذا أثنى أحدهما إصبعه البنصر على كف الآخر فعليك أن ترى أي طرف هو الذي قام بثني أصبعه ليحتضن اليد كلها في يده، فإن كان ذلك هو الرجل فاللّهفة منه، وإن كان من المرأة فاللّهفة منها، وإن كان من الإثنين فاللّهفة منهما معاً.

هكذا يقابل الإنسان الأحداث، فإن كان الحدث سارًا فالإنسان يقبل عليه

بلهفة، وإن لم يكن الحدث سارًا فالإنسان يقوم إليه متثاقلاً، وهكذا كان يقوم المنافقون إلى الصلاة: ﴿كُسَالَىٰ﴾ كأنهم يؤدون الصلاة يخفون بها نفاقهم ويسترون أنفسهم عن أعين المسلمين.

إن قيامهم إلى الصلاة لم يكن شوقاً إلى لقاء اللّه مثلما كان يقول رسول اللّه ﷺ لبلال رضي اللّه تعالى عنه: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها يا بلال»[1] ولم يقل أرحنا منها يا بلال. إن المؤمن يرتاح عندما يؤدي الصلاة، أما المنافق فهي عملية شاقة بالنسبة إليه، إنه يؤديها ليستتر بها عن أعين المسلمين، لذلك يقوم إليها وهو كسلان.

قال اللّه تعالى عنهم: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] لماذا إذن يقومون إلى الصلاة ما داموا غير مؤمنين بها؟ إنهم يُقيمُونَ الصلاة ظاهرياً أمام الناس ليخدعوا الناس، وحتى يراهم المسلمون وهم يصلون، وهم في هذه الصلاة التي يراؤون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمام الصلاة. إنهم يقولون المطلوب قوله جهراً، ولا يقومون بما يفترضه اللّه عليهم، والمطلوب لتمام الصلاة ما يفعل سرًا وجهراً مثال ذلك أنهم يقرأون الفاتحة وبعض القرآن ولكنهم أثناء الركوع لا يسبحون باسم اللّه العظيم وكذلك في السجود إنهم يؤدون الجانب الجهري من الصلاة ولا يؤدون الجانب الآخر. إن في داخل المنافق تيارين متعارضين: تيار يظهر به أنه مع المؤمنين وتيار آخر مع الكافرين؛ إن التيار الذي مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة، والتيار الذي مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك، والتيار الذي مع المؤمنين يجعله يذكر اللّه قليلاً، والتيار الذي مع الكافرين يجعله لا يذكر اللّه ومن هنا فقد جاء في وصف رسول اللّه ﷺ لصلاة الفجر أنها صلاة ثقيلة على المنافقين[2].

---

(١) رواه أبو داود [٤٩٨٥] عن سالم بن أبي الجعد رضي اللّه تعالى عنه. وقال الألباني: صحيح.

(٢) روى مسلم [٦٥١/ ٢٥٢] عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبواً. ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس. ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حَطب، إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار».

صفة صلاة النبي ﷺ
من التكبير حتى التسليم كأنك تراها

كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة واستقبل القبلة ووقف في مُصلاه رفع يديه إلى فروع أذنيه[١] واستقبل بأصابعه القبلة ونشرها[٢] وقال: «الله أكبر».

ولم يكن يقول قبل ذلك: نويت أن أصلي كذا وكذا مستقبل القبلة أربع ركعات فريضة الوقت أداءً لله تعالى إماماً، ولا كلمة واحدة من ذلك في مجموع صلاته من أولها إلى آخرها.

فقد نقل عنه أصحابه حركاته وسكناته وهيئاته حتى اضطراب لحيته في الصلاة، حتى إنه حمل بنت ابنته مرة في الصلاة فنقلوه ولم يهملوه[٣]، فكيف يتفق ملؤهم من أولهم إلى آخرهم على ترك نقل هذا المهم الذي هو شعار الدخول في الصلاة؟ ولعمر الله لو ثبت عنه من هذا كلمة واحدة لكُنا أول من اقتدى به فيها، وبادر إليها.

ثم كان يمسك شماله بيمينه فيضعها عليها فوق المفصل[٤] ثم يضعها على صدره[٥] ثم يقول: «سبحانك، اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»[٦].

---

(١) رواه مسلم [٣٩١/ ٢٥، ٢٦]، وأبو داود [٧٤٥]، وابن ماجه [٨٥٩]، وأحمد في المسند [٣/ ٤٣٦، ٤٣٧] عن مالك بن الحويرث رضي الله تعالى عنه.

(٢) رواه الترمذي [٢٣٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [٣٧].

(٣) رواه البخاري [٥١٦، ٥٩٩٦] ومسلم [٥٤٣/ ٤١] عن أبي قتادة رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم [٤٠١/ ٥٤]، وأحمد في المسند [٤/ ٣١٧، ٣١٨] عن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه.

(٥) رواه أبو داود [٧٥٩] عن طاوس وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٦٨٧].

(٦) رواه البخاري [٧٤٤]، ومسلم [٥٩٨/ ١٤٧]، وأبو داود [٧٨١] من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

وكان يقول أحياناً: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك». ولكن هذا إنما حُفظ عنه في صلاة الليل(١).

وربما كان يقول: «اللّه أكبر كبيراً اللّه أكبر كبيراً، والحمد للّه كثيراً والحمد للّه كثيراً، وسبحان اللّه بكرةً وأصيلاً»(٢).

وربما كان يقول: «اللّه أكبر، اللّه أكبر، لا إله إلا أنت، لا إله إلا أنت، سبحان اللّه وبحمده، سبحان اللّه وبحمده. ثم يقول: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم، وربما قال: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه، وربما قال: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه»(٣). ثم يقرأ فاتحة الكتاب(٤)، فإن كانت الصلاة جهرية أسمعهم القراءة ولم يسمعهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(٥) [الفاتحة: ١] فربه أعلم هل كان يقرأها أم لا؟

وكان يقطع قراءته آية آية، ثم يقف على ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ثم يبتدئ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] ويقف ثم يبتدئ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

---

(١) رواه مسلم [٧٧١/ ٢٠١]، وأبو داود [٧٦١] عن عليّ بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه.

(٢) رواه أبو داود [٧٦٤]، وابن ماجه [٨٠٧]، وأحمد في المسند [٤/ ٨٠ ـ ٨٥] عن المطعم رضي اللّه تعالى عنه، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه [١٧٣].

(٣) رواه أبو داود [٧٧٥]، والترمذي [٢٤٢]، وابن ماجه [٨٠٤]، وأحمد في المسند [٣/ ٥٠]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٧٠١] عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه تعالى عنه.

(٤) رواه البخاري [٧٥٦]، ومسلم [٣٩٤/ ٣٤]، وأبو داود [٨٢٢] عن عبادة بن الصامت رضي اللّه تعالى عنه.

(٥) رواه البخاري [٧٤٣] عن أنس بن مالك رضي اللّه تعالى عنه: أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون الصلاة بـ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وبنحوه الترمذي [٢٤٦]، ومسلم [٣٩٩/ ٥٠].

[الفاتحة: ٤] على رسل وتمهل وترتيل يمد الرحمن ويمد الرحيم، وكان يقرأ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بالألف[١].

وإذا ختم السورة قال: «آمين» يجهر بها ويمد بها صوته ويجهر بها من خلفه[٢] حتى يرتج المسجد.

واختلفت الرواية عنه هل كان يسكت بين الفاتحة وقراءة السورة، أم كانت سكتة بعد القراءة كلها؟ فقال يونس عن الحسن عن سمرة: حفظت سكتتين، سكتة إذا كبر الإمام حتى يقرأ. وسكتة إذا فرغ من فاتحة الكتاب وسورة عند الركوع، وصدقه أُبي بن كعب على ذلك[٣].

ووافق يونس أشعث الحمراني عن الحسن فقال: سكتة إذا استفتح، وسكتة إذا فرغ من القراءة كلها[٤].

وخالفهما قتادة فقال عن الحسن: إن سمرة بن جندب وعمران بن الحصين تذاكرا، فحدث سمرة أنه حفظ عن رسول الله ﷺ سكتتين: سكتة إذا كبر، وسكتة إذا فرغ من قراءة ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] فقط. فحفظ ذلك سمرة وأنكر عليه عمران بن الحصين، فكتبا في ذلك إلى أُبي بن كعب، فكان في كتابه أن سمرة قد حفظ.

وقال قتادة أيضاً عن الحسن عن سمرة: سكتتان حفظهما عن رسول الله ﷺ إذا دخل في الصلاة وإذا فرغ من القراءة، ثم قال بعد: وإذا قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[٥].

---

(١) رواه أحمد في المسند [٦/ ٣٠٢]، وأبو دود [٤٠٠١]، والترمذي [٣١٠٧] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها. وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٦١٤].

(٢) رواه أبو داود [٩٣٢]، والترمذي [٢٤٨] عن وائل بن حجر، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٨٢٤].

(٣) رواه أبو داود [٧٧٧]، وابن ماجه [٨٤٥]، وأحمد في المسند [٥/ ١٢] عن سمرة رضي الله تعالى عنه وضعفه الألباني في ضعف ابن ماجه [١٨١] وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.

(٤) رواه أبو داود [٧٧٨] عن سمرة رضي الله تعالى عنه، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [١٦٤].

(٥) رواه أبو داود [٧٧٩، ٧٨٠]، والترمذي [٢٥١]، وابن ماجه [٨٤٤]، وأحمد [٥/ ٧] عن سمرة بن جندب رضي الله تعالى عنه، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [١٦٥، ١٦٦].

فقد اتفقت الأحاديث أنهما سكتتان فقط، إحداهما سكتة الافتتاح، والثانية مختلف فيها. فالذي قال: إنها بعد قراءة الفاتحة هو قتادة، وقد اختلف عليه سمرة، فمرة قال ذلك، ومرة قال: بعد الفراغ من القراءة، ولم يختلف على يونس وأشعث أنها بعد فراغه من القراءة كلها، وهذا أرجح الروايتين. والله أعلم[(١)].

وبالجملة فلم ينقل عنه ﷺ بإسناد صحيح ولا ضعيف أنه كان يسكت بعد قراءة الفاتحة حتى يقرأها من خلفه، وليس في سكوته في هذا المحل إلا هذا الحديث المختلف فيه كما رأيت، ولو كان يسكت هنا سكتة طويلة يدرك فيها قراءة الفاتحة لما اختفى ذلك على الصحابة، ولكان معرفتهم به ونقلهم أهم من سكتة الافتتاح.

ثم يقرأ بعد ذلك سورة طويلة تارة، وقصيرة تارة، ومتوسطة تارة كما تقدم ذكر الأحاديث به.

ولم يكن يبتدئ من وسط السورة ولا من آخرها، وإنما كان يقرأ من أولها، فتارة يكملها وهو أغلب أحواله، وتارة يقتصر على بعضها ويكملها في الركعة الثانية.

ولم ينقل أحد عنه أنه قرأ بآية من سورة أو بآخرها إلا في سنة الفجر، فإنه كان يقرأ فيها بهاتين الآيتين: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[(٢)] [آل عمران: ٦٤].

وكان يقرأ بالسورة في الركعة، وتارة يعيدها في الركعة الثانية، وتارة يقرأ سورتين في الركعة.

أما الأول: فكقول عائشة أنه قرأ في المغرب بالأعراف فَرَّقَها في الركعتين[(٣)].

وأما الثاني: فقراءته في الصبح ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [الزلزلة: ١] في الركعتين كلتيهما، والحديثان في السنن[(٤)].

---

(١) رواه الدارمي [١/ ٢٨٣]، وأحمد في المسند [٥/ ١٥، ٢٠، ٢١] عن سمرة بن جندب.

(٢) ذكره النووي في الأذكار: ما يقوله إذا دخل في الصلاة باب القراءة بعد التعوذ.

(٣) رواه النسائي [٢/ ١٧٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٤) رواه أبو داود [٨١٦] عن رجل من جهنية، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [٧٣٠].

وأما الثالث: فكقول ابن مسعود: ولقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينها، فذكر ثمان عشرة سورة من المفصل وسورتين من آلِ حم وهذا في الصحيحين[(١)].

وكان يمد قراءة الفجر ويطيلها أكثر من سائر الصلوات، وأقصر ما حفظ عنه أنه كان يقرأ بها فيها في الحضر ﴿قٓ﴾ [ق: ١] ونحوها.

وكان يجهر بالقراءة في الفجر والأوليين من المغرب والعشاء ويسر فيما سوى ذلك، وربما كان يسمعهم الآية في قراءة السر أحياناً.

وكان يقرأ في فجر يوم الجمعة سورة السجدة: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾ كاملتين، ولم يقتصر على إحداهما ولا على بعض هذه فقط، وكان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة ﴿ٱلۡجُمُعَةِ﴾ و﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ كاملتين، ولم يقتصر على أواخرهما، وربما كان يقرأ بسورة ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾.

وكان يقرأ في العيدين بسورة ﴿قٓ﴾ و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ كاملتين، ولم يقتصر على أواخرهما.

وكان يقرأ في صلاة السر سورة فيها «السجدة» أحياناً فيسجد للسجدة، ويسجد معه من خلفه.

وكان يقرأ في الظهر قدر ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ السجدة ونحو ثلاثين آية، ومرة كان يقرأ فيها بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]، و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ونحوها من السور، ومرة بـ﴿لُقۡمَٰنَ﴾، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾.

وكان يقوم في الركعة الأولى منها حتى لا يسمع وقع قدم، وكذلك كان يطيل الركعة الأولى من كل صلاة على الثانية.

وكانت قراءته في العصر في الركعتين الأوليين في كل ركعة قدر خمس عشرة آية.

وكان يقرأ في المغرب بـ﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾، و﴿وَٱلطُّورِ﴾ تارة و﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ تارة، وبالـ﴿دُخَانٌ﴾ تارة، وروى عنه أنه قرأ فيها بـ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] تفرد به ابن ماجه، ولعل أحد رواته وهم من قراءته بهما في سنة المغرب، فكان يقرأ بهما في سنة

---

(١) رواه البخاري [٥٠٤٣]، ومسلم [٨٢٢/ ٢٧٥] عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

المغرب فقال: كان يقرأ بهما في المغرب أو سقطت «سنة» من النسخة. والله أعلم.

وكان يقرأ في العشاء الآخرة بـ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١] وسورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ويسجد فيها جميع من خلفه، و﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ونحو ذلك من السور.

وكان إذا فرغ من القراءة سكت هنيهة ليرجع إليه نفسه.

ثم كان يرفع يديه إلى أن يحاذي بهما فروع أذنيه كما رفعهما في الاستفتاح صح عنه ذلك كما صح التكبير للركوع بل الذين رووا عنه رفع اليدين ههنا أكثر من الذين رووا عنه التكبير، ثم يقول: «الله أكبر» ويخر راكعاً ويضع يديه على ركبتيه فيمكنهما من ركبتيه، وفرج بين أصابعه وجافى مرفقيه عن جنبيه، ثم اعتدل وجعل رأسه حيال ظهره فلم يرفع رأسه ولم يصوبه، وهصر ظهره أي: مده ولم يجمعه(١)، ثم قال: «سبحان ربي العظيم»(٢).

وروي عنه أنه كان يقول: «سبحان ربي العظيم وبحمده».

قال أبو داود: وأخاف أن لا تكون هذه الزيادة محفوظة(٣).

وربما مكث قدر ما يقول القائل عشر مرات، وربما مكث فوق ذلك ودونه(٤). وربما قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي»(٥).

وربما قال: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح»(٦)، وربما قال: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، وعليك توكلت، أنت ربي، خشع قلبي

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري [٨٢٨]، وأبو داود [٧٣٠، ٧٣٣، ٩٦٦]، والترمذي [٣٠٤، ٣٠٥]، وابن ماجه [١٠٦١] عن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه.

(٢) رواه أبو داود [٨٦٩]، وابن ماجه [٨٨٧]، وأحمد في المسند [٤/ ١٥٥] عن عقبة بن عامر، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [١٨٤].

(٣) رواه أبو داود [٨٧٠] عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، وصحح الألباني هذه الزيادة في صفة الصلاة [٥٩ ـ ٧٧].

(٤) روى أبو داود [٨٨٨]، وأحمد في المسند [٣/ ١٦٢، ١٦٣] عن وهب بن مأنوس قال: سمعت سعيد بن جبير يقول: «ما صليت وراء أحد بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى». يعني: عمر بن عبد العزيز، فحرزنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات. وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [١٨٩].

(٥) رواه البخاري [٧٩٤]، ومسلم [٤٨٤/ ١٧] عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٦) رواه مسلم [٤٨٧/ ٢٢٣]، وأبو داود [٨٧٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

وسمعي، وبصري ودمي، ولحمي وعظمي وعصبي لله رب العالمين»[١].

وربما كان يقول: «سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة»[٢]. وكان ركوعه مناسباً لقيامه في التطويل والتخفيف، وهذا بيِّن في سائر الأحاديث[٣].

ثم كان يرفع رأسه قائلاً: «سمع الله لمن حمده»[٤] ويرفع يديه كما يرفعهما عند الركوع، فإذا اعتدل قائماً قال: «ربنا لك الحمد»[٥]، وربما قال: «اللهم ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[٦] وربما زاد على ذلك: «اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد، اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ»[٧]، وكان يطيل هذا الركن حتى يقول القائل قد نسي، وكان يقول في صلاة الليل فيه: «لربي الحمد، لربي الحمد»[٨].

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٧٧١/ ٢٠٢]، وأبو داود [٧٦٠] عن عليّ رضي الله تعالى عنه.

(٢) رواه أبو داود [٨٧٣] عن عوف بن مالك الأشجعي وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٧٧٦].

(٣) رواه البخاري [٧٩٢]، ومسلم [٤٧١/ ١٩٣]، وأبو داود [٨٥٢، ٨٥٤]، والترمذي [٢٧٩، ٢٨٠] وغيرهم. عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه.

قال ابن القيم: ولا يناقض هذا ما رواه البخاري في هذا الحديث: «كان ركوع النبي ﷺ وسجوده وما بين السجدتين وإذا رفع رأسه ما خلا القيام والقعود قريباً من السواء» فإن البراء هو القائل هذا وهذا، فإنه في السياق الأول أدخل في ذلك قيام القراءة وجلوس التشهد، وليس مراده أنهما بقدر ركوعه وسجوده، وإلا ناقض السياق الأول والثاني، وإنما المراد أن طولهما كان مناسباً لطول الركوع والسجود والاعتدالين بحيث لا يظهر التفاوت الشديد في طول هذا، وقصر هذا.

(٤) رواه مسلم [٣٩١/ ٥] عن مالك بن الحويرث رضي الله تعالى.

(٥) رواه البخاري [٣٢٢٨] ومسلم [٤٠٩/ ٧١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

(٦) رواه مسلم [٤٧٧/ ٢٠٥] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه.

(٧) رواه مسلم [٤٧٦/ ٢٠٤] عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه.

(٨) رواه أبو داود [٨٧٤]، والنسائي [٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠]، وأحمد في المسند [٥/ ٣٩٨] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه.

ثم يكبر ويخر ساجداً ولا يرفع يديه[١]، وكان يضع ركبتيه قبل يديه، هكذا قال عنه وائل بن حجر[٢] وأنس بن مالك[٣].

قال عنه ابن عمر إنه كان يضع يديه قبل ركبتيه[٤].

واختلف على أبي هريرة، ففي السنن عن النبي ﷺ: «إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير وليضع يديه قبل ركبتيه»[٥].

وروى عنه المقبري عن النبي ﷺ: «إذا سجد أحدكم فليبدأ بركبتيه قبل يديه»[٦]، فأبو هريرة قد تعارضت الرواية عنه، وحديث وائل وابن عمر قد تعارضا، فرجحت طائفة حديث ابن عمر، ورجحت طائفة حديث وائل بن حجر، وسلكت طائفة مسلك النسخ وقالت: كان الأمر الأول وضع اليدين قبل الركبتين ثم نسخ بوضع الركبتين أولاً، وهذه طريقة ابن خزيمة في ذكر الدلائل على أن الأمر بوضع اليدين عند السجود منسوخ، فإن وضع الركبتين قبل اليدين ناسخ، ثم روى عن مصعب بن سعد قال: كنا نضع اليدين قبل الركبتين فأمرنا بوضع الركبتين قبل اليدين[٧]، وهذا لو ثبت لكان فيه الشفاء، لكن يحيى بن سلمة بن كهيل قال البخاري: عنده مناكير، وقال ابن معين: ليس بشيء لا يكتب حديثه، وقال النسائي: متروك الحديث. وهذه القصة وهم فيها يحيى أو غيره، وإنما المعروف عن مصعب بن سعد عن أبيه نسخ التطبيق في الركوع بوضع اليدين على الركبتين، فلم يحفظ هذا الراوي وقال: المنسوخ وضع اليدين قبل الركبتين.

---

(١) رواه البخاري [٧٣٨]، وأبو داود [٧٢٣]، وأحمد في المسند [٤/ ٣١٧] عن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه.

(٢) رواه أبو داود [٨٣٨]، والترمذي [٢٦٨]، وابن ماجه [٨٨٢] عن وائل بن حجر، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [١٨١].

(٣) رواه الدارقطني [١/ ٣٤٥]، والحاكم [١/ ٢٢٦].

(٤) رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار [١/ ٢٥٤] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما.

(٥) رواه أبو داود [٨٤٠]، والنسائي [٢/ ٢٠٧]، وأحمد في المسند [٢/ ٣٨١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٧٤٦].

(٦) رواه البيهقي في السنن [٢/ ١٠٠] وفيه: المقبري، وهو متروك الحديث، انظر الجرح والتعديل [٥/ ٧١].

(٧) رواه ابن الخزيمة [٦٢٨]، والبيهقي في السنن [٢/ ١٠٠] من طريق إبراهيم بن إسماعيل عن أبيه عن جده، وإبراهيم ضعيف، وأبوه متروك، وجده متروك، انظر تهذيب التهذيب [١١/ ٢١٥].

قال السابقون باليدين: قد صح حديث ابن عمر فإنه من رواية عبيد الله عن نافع عنه، قال ابن أبي داود: وهو قول أهل الحديث.

قالوا: وهو أعلم بهذا من غيرهم، فإنه نقل محض.

قالوا: وهذه سنة رواها أهل المدينة وهم أعلم بها من غيرهم، قال ابن أبي داود ولهم فيها إسنادان:

أحدهما: محمد بن عبد الله بن حسن عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

والثاني: الدراوردي عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر.

قالوا: وحديث وائل بن حجر له طريقان وهما معلولان، في أحدهما شريك تفرد به، قال الدارقطني: وليس بالقوي فيما يتفرد به.

والطريق الثاني: من رواية عبد الجبار بن وائل عن أبيه ولم يسمع من أبيه [١].

وقال السابقون بالركبتين: حديث وائل بن حجر أثبت من حديث أبي هريرة وابن عمر، قال البخاري: حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة لا يتابع عليه، فيه محمد بن عبد الله بن الحسن قال: ولا أدري سمع من أبي الزناد أم لا؟

وقال الخطابي: حديث وائل بن حجر أثبت منه، قال: وزعم بعض العلماء أنه منسوخ؛ ولهذا لم يحسنه الترمذي وحكم بغرابته وحسّن حديث وائل.

قالوا: وقد قال في حديث أبي هريرة: «لا يبرك كما يبرك البعير»، والبعير إذا برك بدأ بيديه قبل ركبتيه، وهذا المعنى لا يمانع قوله: «وليضع يديه قبل ركبتيه» بل ينافيه ويدل على أن هذه الزيادة غير محفوظة، ولعل لفظها انقلب على بعض الرواة. قالوا: ويدل على ترجيح هذا أمران آخران:

أحدهما: ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يعتمد الرجل على يديه في الصلاة» [٢].

وفي لفظ: «نهى أن يعتمد الرجل على يديه إذا نهض في الصلاة» [٣]

---

(١) رواه أبو داود [٨٣٩] عن عبد الجبار بن وائل عن أبيه رضي الله تعالى عنهما، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [١٨٢].

(٢) رواه أبو داود [٩٩٢]، وأحمد في المسند [٢/ ١٤٧]، وانظر الذي بعده.

(٣) رواه أبو داود [٩٩٢] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه، وقال الألباني في صحيح أبي داود [٨٧٥]: صحيح إلا لفظ ابن عبد الملك فإنه منكر.

ولا ريب أنه إذا وضع يديه قبل ركبتيه اعتمد عليهما، فيكون قد أوقع جزءاً من الصلاة معتمداً على يديه بالأرض، وأيضاً فهذا الاعتماد بالسجود نظير الاعتماد في الرفع منه سواء، فإذا نهى عن ذلك كان نظيره كذلك.

الثاني: أن المصلي في انحطاطه ينحط منه إلى الأرض الأقرب إليها أولاً، ثم الذي من فوقه ثم الذي من فوقه حتى ينتهي إلى أعلى ما فيه وهو وجهه فإذا رفع رأسه من السجود ارتفع أعلى ما فيه أولاً، ثم الذي دونه حتى يكون آخر ما يرتفع منه ركبتاه. والله أعلم.

ثم كان يسجد على جبهته وأنفه ويديه وركبتيه وأطراف قدميه[١] ويستقبل بأصابع يديه ورجليه القبلة، وكان يعتمد على إليتي كفيه ويرفع مرفقيه ويجافي عضديه عن جنبيه حتى يبدو بياض إبطيه، ويرفع بطنه عن فخذيه وفخذيه عن ساقيه، ويعتدل في سجوده[٢]، ويمكن وجهه من الأرض مباشراً به للمصلَّى غير ساجد على كور العمامة[٣].

قال أبو حميد الساعدي وعشرة من الصحابة يسمعون كلامه: «كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة اعتدل قائماً ورفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، فإذا أراد أن يركع رفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، ثم قال: «الله أكبر» فركع ثم اعتدل فلم يصوب رأسه ولم يقنع ووضع يديه على ركبتيه وقال: «سمع الله لمن حمده» ورفع يديه واعتدل حتى رجع كل عظم في موضعه معتدلاً، ثم هوى ساجداً وقال: «الله أكبر» ثم جافى عضديه عن إبطه وفتح أصابع رجليه ثم ثنى رجله اليسرى وقعد عليها واعتدل، حتى يرجع كل عظم في موضعه معتدلاً، ثم هوى ساجداً وقال: «الله أكبر» ثم ثنى رجله وقعد واعتدل؛ حتى يرجع كل عظم في موضعه، ثم نهض فصنع في الركعة الثانية مثل ذلك، حتى إذا قام من السجدتين كبر ورفع يديه؛ حتى يحاذي بهما منكبيه كما صنع حين افتتح الصلاة، ثم صنع

---

(١) جزء من حديث أبي حميد الساعدي سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم [٤٩٤/ ٢٣٤]، وأحمد في المسند [٤/ ٢٨٣، ٢٩٤] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه.

(٣) ذكر أبو داود في المراسيل أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي في المسجد فسجد بجنبيه وقد اعتم على جبهته فحسر رسول الله ﷺ عن جبهته. وحديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يسجد على كور عمامته. قال ابن القيم في زاد المعاد [١/ ٢٣٢]: هو من رواية عبد الله بن محرر وهو متروك.

كذلك حتى إذا كانت الركعة التي تنقضي فيها الصلاة أخر رجله اليسرى وقعد على شقه متوركاً ثمَّ سلم»[١].

وكان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى»[٢].

ورُوي أنه كان يزيد عليها: «وبحمده» وربما قال: «اللهم إني لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين» وكان يقول أيضاً: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي» وكان يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت».

وكان يقول: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح» وكان يقول: «اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله وأوله وآخره، وعلانيته وسره» وكان يقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وكان يجعل سجوده مناسباً لقيامه.

ثم يرفع رأسه قائلاً: «الله أكبر» غير رافع يديه[٣]، ثم يفرش رجله اليسرى ويجلس عليها وينصب اليمنى ويضع يديه على فخذيه[٤]، ثم يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني» وفي لفظ: «وعافني» بدل «واجبرني» هذا حديث ابن عباس[٥]. وقال حذيفة: كان يقول بين السجدتين: «رب اغفر لي»[٦] والحديثان في السنن.

وكان يطيل هذه الجلسة حتى يقول القائل: قد أوهم أو قد نسي[٧].

ثم يكبر ويسجد غير رافع يديه، ويصنع في الثانية مثل ما صنع في الأولى،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم [٧٧٢/ ٢٠٣]، والترمذي [٢٦٢] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه.

(٣) رواه البخاري [٧٣٨]. عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما.

(٤) رواه النسائي [٣/ ٣٦]، وأبو داود [٩٥٧]، وابن حبان [٤٨٥] وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٨٤٤] عن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه.

(٥) رواه أبو داود [٨٥٠]، والترمذي [٢٨٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [٧٥٦].

(٦) رواه أبو داود [٨٧٤]، وابن ماجه [٨٩٧] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٧١٤].

(٧) رواه مسلم [٤٧٣/ ١٩٦]، وأبو داود [٨٥٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه.

ثم يرفع رأسه مكبراً وينهض على صدور قدميه معتمداً على ركبتيه وفخذيه[١].

وقال مالك بن الحويرث: كان رسول الله ﷺ إذا كان في وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوي قاعداً، فهذه تسمى جلسة الاستراحة، ولا ريب أنه ﷺ فعلها ولكن هل فعلها على أنها من سنن الصلاة وهيئاتها كالتجافي وغيره، أو لحاجته إليها لما أسن وأخذه اللحم؟ وهذا الثاني أظهر لوجهين:

أحدهما: أن فيه جمعاً بينه وبين حديث وائل بن حجر وأبي هريرة أنه كان ينهض على صدور قدميه.

والثاني: أن الصحابة الذين كانوا أحرص الناس على مشاهدة أفعاله وهيئات صلاته كانوا ينهضون على صدور أقدامهم، فكان عبد الله بن مسعود يقوم على صدور قدميه في الصلاة ولا يجلس. رواه البيهقي عنه، ورواه عن ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبي سعيد الخدري من روايته عطية العوفي عنهم، وهو صحيح عن ابن مسعود ولم يكن يرفع يديه في هذا القيام.

وكان إذا استتم قائماً أخذ في القراءة ولم يسكت وافتتح قراءته بالحمد لله رب العالمين.

فإذا جلس في التشهد الأول جلس مفترشاً كما جلس بين السجدتين، ويضع يده اليسرى على ركبته اليسرى واليمنى على فخذه اليمنى، وأشار بإصبعه السبابة ووضع إبهامه على أصبعه الوسطى كهيئة الحلقة وجعل بصره إلى موضع إشارته[٢]، وكان يرفع إصبعه السبابة ويحنيها قليلاً يوحد بها ربه عزّ وجلّ.

وذكر أبو داود من حديث ابن عباس عنه ﷺ أنه قال: هكذا الإخلاص «يشير بإصبعه التي تلي الإبهام»، «وهكذا الدعاء» فرفع يديه مدًا حذو منكبيه، «وهكذا الابتهال» فرفع يديه مدًا. وقد روي موقوفاً.

ثم كان يقول: «التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا

---

(١) لم أجد دليله، وهو مخالف لما رواه البخاري [٨٢٣]، وأبو داود [٨٤٤]، والترمذي [٢٨٧] عن مالك بن الحويرث رضي الله تعالى عنه أنه رأى النبي ﷺ يصلي، فإذا كان في وترٍ من صلاته لم ينهض حتى يستوي قاعداً.

(٢) رواه أبو داود [٩٩٠]، وابن حبان في صحيحه [١٩٤٤] وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [٨٧٤] عن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه.

اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» وكان يعلمه أصحابه كما يعلمهم القرآن[١].

وكان أيضاً يقول: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات للّه» هذا تشهد ابن عباس[٢].

والأول تشهد ابن مسعود وهو أكمل؛ لأن تشهد ابن مسعود يتضمن جملاً متغايرة، وتشهد ابن عباس جملة واحدة، وأيضاً فإنه في الصحيحين وفيه زيادة الواو، وكان يعلمهم إياه كما يعلمهم القرآن.

وروى ابن عمر عنه: «التحيات للّه الصلوات الطيبات» وفيه أنواع أخرى كلها جائزة.

وكان يخفف هذه الجلسة، حتى كأنه جالس على الردف وهي: الحجارة المحماة. ثم يكبر وينهض ويصلي الثالثة والرابعة ويخففهما عن الأوليين، وكان يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب وربما زاد عليها أحياناً.

الصلاة وحكم تاركها [ص: ٨٨ ـ ٢٠٩]

(١) رواه البخاري [٦٣٢٨]، ومسلم [٤٠٢/ ٥٥] عن ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه.

(٢) رواه مسلم [٤٠٣/ ٦٠]، وأبو داود [٩٧٤] عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنه.

رحمة اللّه بعباده

يقول الحق عزّ وجلّ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

إن الغاية النهائية في كل تكليف إيماني وفي كل عمل أن تنال رضوان اللّه في الآخرة، إياك أن يشغلك عن صلوات اللّه وتحياته وبركاته أي شيء حتى ولو كان انتصاراً لعقيدة؛ لأن انتصار العقيدة هو وسيلة ينال بها المؤمن صلوات اللّه ورحمته، وكل شيء عدا ذلك إنما هو وسيلة للوصول إلى هذه الغاية. إن غاية الغايات أن يفوز المؤمن برضا من أراد له الحياة وأن تكون له الصلوات والرحمة من خالقه سبحانه وتعالى. والصلاة كما نعرف في اللغة هي الدعاء. وللناس صلاة وللملائكة صلاة، وللّه تعالى صلاة، ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣، ٤٤].

إن الحق سبحانه يتعهد عباده برحمته ولطفه، وملائكته تطلب للصالحين من العباد المغفرة والهداية، وبهذا يخرج الحق المؤمنين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويتلقاهم اللّه بأمن وسلام، ويجزيهم الخير كله، ونحن نعرف أن الخلق كلهم ـ الكافر منهم والمؤمن ـ إنما يعيشون برحمة اللّه في الأرض. إننا نأخذ بأسباب اللّه التي أرادها اللّه رحمة منه في الأرض. المؤمن يأخذ نعم اللّه المادية ومعها البركة والاطمئنان، والكافر يأخذ من نعيم الدنيا على قدر بذله فيها من جهد، لكنه لا يأخذ البركة والاطمئنان، وهما النعمة الكبرى من اللّه تعالى لعباده.

إن الصلاة من اللّه عطاء البركة والرحمة، والصلاة من الملائكة استغفار، والصلاة من المؤمنين دعاء، وصلاة المؤمنين على رسول اللّه ﷺ هي دعوة لرسوله بالخير والبركة والرحمة، وهو في نفس الوقت دعاء لأنفسهم؛ لأن كل منزلة ينالها رسول اللّه ﷺ تعود على أمته، وإن كل صلاة من المؤمن على رسول اللّه يجازى عليها من اللّه بعشرة ثم إن رسول اللّه هو الذي سيشفع لنا عند اللّه يوم القيامة ولذلك فكل إعلاء لدرجته ﷺ إعلاء لأمته، وكل خير يناله رسول اللّه ﷺ هو خير

لنا جميعاً لذلك فعندما نصلي على النبي فإننا ندعو له وندعو لأنفسنا، لأن المؤمن إذا صلى على رسول الله مرة واحدة فإن الله يصلي عليه عشر مرات[١]، وهكذا يكون المؤمنون في المرتبة التي يتلقون فيها صلوات ربهم ورحمته، ويكونون هم المهتدين، أي: أنهم هم الذين التزموا الطريق الموصل إلى الغاية. والغاية هي أن ينالوا صلوات من ربهم ورحمة فيتمتع المؤمن بنعم الله بأسباب الله في الدنيا، ويتمتع في الآخرة بنعم الله جزاءً صافياً من الله.

(١) روى أبو داود [١٥٣٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشراً». وصححه الألباني.

التعلق برحمة الله

وعندما نبدأ أي عمل نبدأه «بسم الله الرحمن الرحيم» وانظر إلى رحمة الله بالخلق. فالله سبحانه وتعالى يرفع عن العاصي الحرج في أنه يقبل على نعم الله باسم الله الذي عصاه، وحتى لا يستحي من عصى الله أن يبدأ أي عمل باسم الله وأن يستعينه. نقول: إن الحق سبحانه وتعالى جعلك تقبل على عملك وأنت واثق من الاستجابة؛ لأن الله هو الرحمن الرحيم فإذا قلت: بسم الله الرحمن الرحيم تعلقت برحمة الله فأعانك على ما تفعل.

والرحمة والرحمن والرحيم: مشتق منها الرحم الذي هو مكان الجنين في بطن أمه، هذا المكان الذي يأتيه فيه الرزق بلا حول ولا قوة، ويجد فيه كل ما يحتاج إليه نموه مُيَسَّراً رزقاً من الله سبحانه وتعالى بلا تعب، ولا مقابل، انظر إلى حنو الأم على ابنها وحنانها عليه(١)، وتجاوزها عن سيئاته وفرحتها بعودته إليها. وفي الحديث القدسي: «أنا الرَّحمن، خَلَقْتُ الرَّحِم وشَقَقتُ لها اسماً من اسمي، فَمَن وَصَلَها وَصَلْته، وَمَنْ قَطَعَها بَتَتُّه»(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] هناك ثلاثة

---

(١) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهُ ـ قالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَحْلُبُ ثَدْيَها تَسْقِي إذا وَجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِها وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنا النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هذِهِ طارِحَةً وَلَدَها فِي النَّارِ؟». قُلْنا: لا، وَهْيَ تَقْدِرُ عَلى أَنْ لا تَطْرَحَهُ، فَقال: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبادِهِ مِنْ هذِهِ بِوَلَدِها».

رواه البخاري [٥٩٩٩] واللفظ له، ومسلم [٢٧٥٤/٢٢]

(٢) رواه أحمد في المسند [١/ ١٩٤] عن عبد الرحمن بن عوف، رضي الله تعالى عنه. وصححه الشيخ شاكر برقم [١٦٨٦]، والترمذي [١٩٠٧]، وقال: حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [١٥٥٧].

ورواه البخاري [٤٨٣٠، ٥٩٨٧، ٥٩٨٨، ٥٩٨٩، ٧٥٠٢]. ومسلم [٢٥٥٤/١٦] عن أبي هريرة، رضي الله تعالى عنه، بألفاظ متقاربة.

أسماء للّه تعالى قد وردت في «البسملة»، وفي: «فاتحة الكتاب»، وهي: ﴿ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.

ونحن نعلم أنه: ليس هناك تكرار في القرآن الكريم، وإذا تكرر اللفظ يكون معناه في كل مرة مختلفاً عن معناه في المرة السابقة؛ لأن المتكلِّمَ هو اللّه سبحانه وتعالى، ولذلك تجد دائماً اللفظ في مكانه الصحيح، وفي معناه الصحيح.

وهناك فرق بين ورود اسم اللّه تعالى في البسملة، وفي الفاتحة؛ ففي البسملة، تقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي نستعين به على ما لا قدرة لنا عليه؛ لأن اللّه هو الذي سخر كل ما في هذا الكون، وجعله يخدمنا، وفي الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فإن لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد اللّه على ما فعل لنا.

فكأن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في البسملة: طلب العون من اللّه بكل كمال صفاته، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في الفاتحة: تقديم الشكر للّه بكل كمال صفاته.

كما أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البسملة لها معنى غير ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في الفاتحة؛ ففي البسملة تلفتنا إلى رحمة اللّه سبحانه وتعالى وغفرانه؛ حتى لا نستحي، ولا نهاب أن نستعين به سبحانه إن كنا قد فعلنا معصية.

فاللّه سبحانه وتعالى يريد منا أن نستعين باسمه دائماً في كل أعمالنا، فإذا سقط واحد منا في معصية، فلا يقول: كيف أستعين باللّه وقد عصيته؟! نقول له: ادخل عليه سبحانه وتعالى من باب الرحمة، فيغفر لك، واستعن به يُعِنْكَ.

ولولا رحمة اللّه التي سبقت غضبه، ما بقي للناس نعمة، وما عاش أحد على ظهر الأرض؛ يقول جل جلاله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

فالإنسان خُلِقَ ضعيفاً، وخُلِقَ هلوعاً، والرسول ﷺ يقول: «لن يُدخل أحداً منكم عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول اللّه؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه منه بفضل ورحمة»[1].

فذنوب الإنسان في الدنيا كثيرة، إذا حكم فقد يظلم، وإذا ظن فقد يسيء، وإذا تحدث فقد يكذب، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق، وإذا تكلم فقد يغتاب.

هذه ذنوب نرتكبها بدرجات متفاوتة، ولا يمكن لأحد منا أن ينسب الكمال

---

(١) رواه البخاري [٦٤٦٢]، ومسلم [٢٨١٦/ ٧٥] واللفظ له، عن أبي هريرة، رضي اللّه تعالى عنه.

لنفسه، حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم في الطاعة لا يصلون إلى درجة الكمال، فالكمال لله وحده. ورسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ بَني آدم خَطَّاء وخَيْرُ الخَطَّائِين التَّوَّابُون»(١).

ولما كان الإنسان ظلوماً جهولاً(٢)، أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعلمه أن يبدأ كل عمل باسم الله، فعلمنا أن نقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؛ لكي نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله، وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة في كل عمل باسم الله؛ لأنه سبحانه ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية في الاستعانة به سبحانه وتعالى.

و﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في الفاتحة مقترنة برب العالمين، الذي أوجدك من عدم، وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى، أنت تحمده على هذه النعم التي أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى في ربوبيته، والله سبحانه وتعالى ربٌّ للمؤمن والكافر، وهو الذي خلقهم؛ لذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته، وليس بما يستحقون، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط، والمطر ينزل على من يعبدون الله، وعلى من يعبدون أوثاناً من دون الله، والهواء جعله الله لمن قال: لا إله إلا الله ومن جحد بها.

إذن.. كل النعم التي هي من عطاء الربوبية هي في الدنيا لخلق الله جميعاً، وهذه رحمة منه سبحانه؛ لأنه هو ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ رب الجميع، من أطاعه ومن عصاه.

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] الله محمود لذاته، ومحمود لصفاته، ومحمود لنعمه، ومحمود لرحمته، ومحمود لمنهجه، ومحمود لقضائه. فالله تعالى محمود قبل أن يخلق من يحمده، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الثناء عليه في كلمتين اثنتين هما: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

والعجيب أنك حين تشكر بشراً على جميل فعله تظل ساعات وساعات، تُعد كلمات الشكر والثناء، وتحذف وتضيف، وتأخذ رأي الناس، حتى تصل إلى

---

(١) رواه أحمد في المسند [٣/ ١٩٨] والترمذي [٢٤٩٩]، وقال: حديث غريب، وابن ماجه [٢٤٥١] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه واللفظ له، وقال الألباني في صحيح الترمذي [٢٠٢٩]: حسن.

(٢) قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قصيدة أو خطاب مليء بالثناء والشكر. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى، جلت قدرته، وتعالت عظمته الذي نعمه لا تُعد ولا تُحصى ـ علمنا أن نشكره في كلمتين اثنتين هما: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا صيغة الحمد، فلو أنه تركنا دون أن يعلمنا إياها، لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهي، فمهما أوتي الناس من بلاغة وقدرة على التعبير، فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى صيغة الحمد التي تليق بجلال المنعم، فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصي نعمه أو يحيط برحمته؟! وفي الحديث: «لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1].

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٤٨٦/ ٢٢٢]، وأبو داود [٨٧٩]، والنسائي في المجتبى [٢/ ٢١٠]، وابن ماجه [٣٨٤١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

صفة الرحمة

المؤمنون والمؤمنات الذين هم أولياء بعض الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة والذين يؤتون الزكاة ويطيعون اللّه ورسوله هؤلاء سيرحمهم اللّه. ما هو الأبلغ أن يقال: «أولئك يرحمهم اللّه» أو ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١] الأبلغ أن يقال ما قاله رب العزة سبحانه: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأن السببية تعطي استطالة زمن، وبذلك سيكون أمل المؤمن دائماً في رحمة اللّه. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي: أن الود سيكون مستمراً حتى لمن استمع إلى هذه الآية ثم استشهد. واللّه سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] ولم يقل: يعطيك ربك؛ لأن العطاء مستمر. وأنت عندما تتهدد أحداً لا تقول له: «أنا أنتقم منك» بل تقول له: «سأنتقم منك» يعني: الانتقام مستمر مع الزمن. فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعطي أن صفة الرحمة في الحق جل جلاله أعلى من صفة الرحمة في المخلوق. ذلك لأن التراحم من الحق جل جلاله أعلى من صفة الرحمة في المخلوق، فالتراحم من الخلق تراحم على قدر الأسباب، وإنما الرحمة من الحق سبحانه وتعالى هي من صفات الكمال التي لا تتناهى ولا تنتهي. والرحمة ألا يقع داء، والشفاء أن يوجد داء فيشفى. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء: ٨٢] فالاثنان يؤديان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التي تُشقي الإنسان، ولكن الشفاء سلامة في أول الأمر والرحمة ممتدة لا يأتي بعدها داء أبداً.

رحمة الله في الدنيا والآخرة

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ...﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. إن الحق سبحانه وتعالى يلفت موسى عليه السلام ويلفتنا جميعاً إلى طلاقة قدرته، فطلاقة قدرة الله بلا قيود وبلا حدود، ولذلك فعذابه يصيب به من يشاء، فليس الذنب موجباً للعذاب إذا تاب المذنب وقبل الله توبته وغفر له، ولذلك فإن الله يتوب على المذنبين والعاصين الذين تابوا ورجعوا إلى الطريق المستقيم، وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: رحمتي في الدنيا أعطيها للطائع والعاصي، والمؤمن وغير المؤمن، ولكنها خالصة يوم القيامة للمؤمنين، وهنا قال بعض أحبار اليهود: «ما دامت رحمة الله قد وسعت كل شيء، فإنها تسعنا لأننا شيء» نقول: «نعم رحمة الدنيا التي وسعت كل شيء تسعكم».

ثم قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كلمة: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أثارت جدلاً كثيراً فالسين هنا دلت على زمن قادم، وإذا كانت رحمة الله وسعت كل شيء في الدنيا وسيكتبها دليل على أن ذلك في الآخرة وطبعاً الحق كتبها بالفعل وانتهى، ولكنها ما زالت غيباً بالنسبة لنا. نعود إلى أحبار اليهود قالوا: ما دامت رحمة الله وسعت كل شيء وسيكتبها للذين يتقون فنحن متقون. إذن فعندنا كم حالة؟

الحالة الأولى: أنهم قالوا: نحن شيء فالرحمة تسعنا، والرد: الرحمة تسعكم في الدنيا، فالكل فيها، وفي قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ قالوا: نحن متقون في منهج موسى، نقول لهم لو كنتم متقين في منهج موسى لآمنتم بمحمد الذي تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة؛ لأنه من تعاليم موسى أن تؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام.

الهدى والرحمة

يقول الحق سبحانه: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام: ١٥٤] ما هو الهدى وما هي الرحمة؟ الهدى: هو الدلالة على الغاية، ولماذا جعل الله لنا دلالة على طريق الإيمان أو على الغاية؟ لو أن المسألة سارت بفطرة الإيمان فآدم تلقى عن ربه فبلغ أبناءه، وأبناؤه أبلغوا أبناءهم، وهكذا جيل بعد جيل ما كانت هناك حاجة للرسالات السماوية، ولكن مع الزمن بدأ الطريق الإيماني يقل، فهذا خالف وهذا نسي، وهذا بدل وغيّر ليحقق نفعاً ذاتياً. وكان على كل واحد منا كما يعلّم أولاده كيف يأكلون وكيف يشربون أن يُعلّمهم أيضاً أمور القيم. ولكن الناس حرصت على الدنيا وغفلت عن منهج الله فالحق سبحانه وتعالى ـ رحمة بغفلتنا ونسياننا وتبديلنا لأحكامه ـ أرسل الرسل هدى جديداً ليذكرنا بمنهجه، ويصحح لنا ما قد حرف ويظهر لنا ما قد أخفى حتى لا تكون لنا حجة يوم القيامة في أن أجدادنا وآباءنا هم الذين بدلوا وحرفوا ونحن كنا ذرية من بعدهم فاتبعنا ما بلغوه لنا فكيف يحاسبنا الله بذنوب أجدادنا وآبائنا.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1] [الأعراف: ١٧٣] حتى لا يقول المشركون

---

(١) روى أبو داود [٤٧٠٣] وصححه الألباني عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فقال سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون» فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار».

وجاء في تفسير الوسيط [٢/ ٤٤ ـ ٤٢٦] وعن ابن عباس عن النبي ﷺ: أخذ الله عزّ وجلّ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً معاينة فقال: ألست بربكم؟ قالوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ=

والعاصون هذا يوم القيامة هداهم الله إلى الطريق المستقيم، وهذه الهداية هي رحمة من الله بهم.

ثم يقول الحق تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] لماذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ لأنه إذا كان عدم اتباعهم لتشريعات الله إنما عن عدم علم فستتضح في ذهنهم الصورة، وأنهم ملاقو الله وما دامت اتضحت في ذهنهم الصورة، فإنهم سيحسبون لذلك ألف حساب. تماماً كالطالب الذي يعرف أنه سيذهب إلى الامتحان، يكون هذا في باله كل لحظة فلا ينام ويجتهد في المذاكرة، أما الذي ليس في ذهنه الامتحان وليس متنبهاً له، فسيقضي وقته في اللعب والنوم؛ إذ إن الغايات تجعل الإنسان يقبل على الوسائل، وفي ذلك يقول الشاعر:

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين والغايات قبل المذاهب

نقول له: «ألا من يريني غايتي قبل مذهبي» كلام صحيح أمّا أن «الغايات قبل المذاهب» فالله شرع الغايات أولاً، وبعد ذلك جعل لها السبيل.

إذن.. فاستخدام قول الحق تعالى: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: لعل هذه الرسالات السماوية تجعلهم يوقنون بلقاء ربهم، فيعملون لهذا اللقاء ألف حساب.

❁ ❁ ❁

= ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ تلاها إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

وعنه رضي الله تعالى عنه: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فأخرج من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فقال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، فنودي يومئذٍ أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة».

قال المفسرون: وهذه الآية تذكير بما أخذ على جميع المكلفين من الميثاق واحتجاج عليهم لئلا يقول الكفار إنا عن هذا الميثاق غافلين لم نحفظه ولم نذكره، ونسيانهم لا يسقط الاحتجاج بعد أن أخبر بذلك على لسان صاحب المعجزة وإذا صح ذلك يقول الصادق قام في النفوس مقام الذكر، فالاحتجاج به قائم، ثم قطع عذر الكفار بقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، لا يستطيع أحد من الذرية الكافرة أن يقول يوم القيامة: إنما أشرك آباؤنا من قبل، ونقضوا العهد ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أفتعذبنا بما فعل المشركون المكذبون بالتوحيد؟ فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله بأخذ الميثاق بالتوحيد على كل واحد من الذرية.

الاختلاف والرحمة

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ والناس هم: بنو آدم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: أمة مقهورة مثل باقي أجناس الأرض من الجماد والحيوان والنبات.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] أي سيظلون مختلفين؛ لأن لهم الاختيار لن يسلبه الله منهم، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هل خلقهم للرحمة أو للاختلاف؟ قلنا: إن ساعة ترى اسم إشارة أو ضميراً عائداً على كلام متقدم ننظر ماذا تقدم؟ الذي تقدم هو: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ . . .﴾ أي للاختلاف والرحمة للإثنين كيف؟ الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن خلق الإنسان قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومعنى العبادة: طاعة الله في افعل ولا تفعل، إذن فمراد الله الشرعي من الخلق هو للعبادة، ولكنّ هناك مراداً كونياً لله سبحانه وتعالى وهو أن يكون الإنسان مختاراً وحدث من الاختيار اختلاف، والاختلاف ناشئ عن تعدد الأهواء، فلو أن لنا هوى واحداً كنا لا نختلف، ولكن نحن نختلف، لأن لكل واحد منا غرضاً، والله تبارك وتعالى يحذرنا من ذلك.

واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١] فلو فعل كل منا ما يشتهيه تتصادم الأهواء، ويفسد العالم.

إذن.. فالعالم لا يستقيم إلا إذا كان حلقته الاختيارية على هوى واحد، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[1] فاتباع المنهج وعدم إخضاعه للهوى هو الذي يحفظ حركة الحياة، على أننا

---

(١) قال الحافظ في الفتح: رواه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات؛ وقد صححه النووي في آخر الأربعين.

يجب أن نلاحظ أن الأشياء التي بها حركة الحياة دون التكليف فيها اختيار، فالعالم لا يستقيم إذا كنا جميعاً صنفاً مكرراً؛ إذ لو كنا كلنا أطباء أو مهندسين أو شعراء فمن الذي يفلح الأرض؟ ومن الذي يعد الطعام؟ ومن الذي يصنع لنا ما نحتاج إليه؟

إذن.. فحركة الحياة لا بدّ أن يكون فيها اختلاف باختلاف مواهب، واختلاف مواقع؛ لأن الأمر الذي ليس لي فيه مواهب فأنا محتاج لمن له فيه موهبة، وغيري محتاج إليّ فيما أنا فيه موهوب، والعالم ارتبط كله ببعضه ارتباط حاجة وضرورة، والاختلاف في حركة الحياة على هذا النحو هدف من أهداف الشرع ليستقيم هذا الكون.

واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] فكأن رفع الدرجات ليكون كل منا مسخراً لخدمة الآخر في كل شؤون الحياة، ولكن الناس لا تنظر إلا للغني والفقير فقط وهذه نظرة حمقاء، فالله سبحانه وتعالى لم يبين لنا من هو البعض المرفوع عليه، ومن هو البعض المرفوع، فكل إنسان في جهته مرفوع عليك فيما لا تحسنه، وأنت مرفوع على الناس في موهبتك.

إذن.. فلا بدّ أن نختلف من أجل المجتمع، ولذلك فإنك تجد خواطر الناس تختلف، كما تظهر نتيجة الثانوية العامة مثلاً، كل إنسان يريد أن يتوجه وجهة مختلفة، هذا يريد الطب، هذا يريد الهندسة وذاك يريد أن يتوجه وجهة مختلفة، وذلك يريد التجارة كل حسب موهبته، وكل إنسان معد إعداداً من خالقه ليتفوق في موهبته ويفعل أشياء لا يستطيع أن يتقنها غيره، فهناك من يتقن نظافة الطريق ومن يتقن حمل الأثقال «عتال مثلاً» ومن يهوى أن يعمل سائقاً، فحركة الحياة محتاجة لكل هذه المواهب، والإنسان في مواهبه متكامل، أي مجموع المواهب عند أحدنا يساوي المجموع عند آخر. فمن أعطاه الله درجة عالية في التجارة مثلاً لا يستطيع أن يصنع شيئاً، والصانع إذا تاجر أفلس، لو أنك أعطيت درجات بحيث إن مجموع الإنسان يساوي ١/ ١٠ فإنك تجد أن درجاتنا جميعاً ١٠/ ١٠ ولكن هذا يأخذ في العلم ٧/ ١٠ وباقي الدرجات في المواهب الأخرى، وهذا يأخذ ٧/ ١٠ وباقي الدرجات في المواهب الأخرى، وهذا يأخذ في حياكة الثياب ٧/ ١٠ ومجموع كل منها في النهاية ١٠/ ١٠ فالإنسان الثري قد تتعطل به السيارة، فيذهب إلى محل ميكانيكي مرفوعاً عليه يقول له: أنا مشغول، فيقول له

راجعني بعد يومين أو ثلاثة، وهذا الذي يرجو ويرجو، وتوزيع المواهب في الكون يجعل الكون يعتدل، فلا أحد يأخذه الغرور بما هو متفوق فيه؛ لأنه سيجد غيره متفوقاً عليه في أشياء كثيرة، واللَّه سبحانه وتعالى لا يميز أحداً على أحد، فكلنا عبيده وهو ليس له صاحبة ولا ولد، واختلاف المواهب بين الناس في الكون ليس تمييزاً بين الناس ولكنه تكامل.

وكنا قد تحدثنا عن السباك الذي يصبح سيد الموقف بالنسبة لسكان قصر كبير ملأته مياه المجاري. اللَّه تبارك وتعالى حين يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ لا يعني أنهم مختلفون في حياتهم فقط، بل مختلفون في المنهج، مختلفون في الإيمان والكفر، مختلفون في الطاعة والمعصية. واللَّه تبارك وتعالى إذا لم يرد الكفر ما وجد كفر في كونه، ولكن الكفر لا بدّ أن يوجد ليبين لك حلاوة الإيمان، كما أن الفساد لا بدّ أن يوجد ليبين لك جمال الصراط المستقيم، ولا بدّ أن تذوق نار الشر لتعرف حلاوة الخير. ولقد قلنا: إن الكفر يدعو للإيمان كما أن الألم رسول العافية؛ لأنه ينبهك إلى المرض، فلولا الألم لظل المرض يأكل جسدك. إذن فالألم هو داعي العافية وكل شيء في الكون له مهمة، ومن الرحمة أن كل شيء في الكون يؤدي مهمته، والاختلاف في المواهب بين الناس هو عين الوفاق. ولنفترض أنني اعتدت أن آكل صدر دجاجة، وأنت اعتدت أن تأكل وركها، هذا خلاف في ظاهره، ولكنه وفاق في باطنه؛ لأن الدجاجة ستكفينا ولن نختلف، ولو أننا اتفقنا في أشياء كثيرة لحدث تزاحم عليها، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ...﴾ وإذا سألنا إنسانٌ هل الخلف للاختلاف أم الخلف للرحمة؟ نقول: اختلاف المواهب رحمة بالخلق.

من رحمة الله
أن جعل الرسول من البشر

والله سبحانه وتعالى خلق للإنسان السموات والأرض وما فيهن، وجعل كل هذه النعم في خدمة الإنسان يتمتع بها قبل أن يكلفه الله بتكاليف الإيمان، إذن فالله سبحانه وتعالى يريد الخير والسعادة لخلقه من البشر، والآية الكريمة تقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي أن الرسول الذي جاء لم يأت من جنس آخر كالملائكة مثلاً، ولكنه بشر رسول، وما دام الرسول بشراً فإذا قال لكم: افعلوا كذا فإنه سيكون أسوة لكم، أي أول من يفعل، وما دام الرسول بشراً وقد فعل يكون التكليف في قدرة البشر أن يفعلوه، ولذلك كان من غباء الكافرين أن جعلوا بشرية الرسول سبباً لعدم الإيمان مصداقاً لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

ثم يفند الحق سبحانه وتعالى حجتهم بأنهم كانوا يريدون ملكاً رسولاً فيقول جل جلاله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] أي أن الحق سبحانه وتعالى لو أرسل رسولاً من الملائكة فإن الناس لن تراه؛ لأننا لا نرى الملائكة، ولذلك لا بدّ أن يتشكل في صورة إنسان بشر حتى يمكنه أن يدعو البشر للإيمان، فتكون نفس المشكلة قائمة في أنكم سترونه بشراً والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. فإذا جاء الرسول الملك ليعلم الناس الدين قالوا: أنت مخلوق على الطاعة ليس لك شهوات، ونحن مخلوقون على الطاعة والمعصية، ولنا شهوات نأكل الطعام ونتناسل، إذن فنحن لا نستطيع أن نقتدي بك لاختلاف طبيعة الخلق، لقد جئتنا بما لا نقدر على تحمله.

إذن.. فمن رحمة الله بخلقه أن جاءهم برسول بشر من أنفسهم، وفي هذه الحالة تكونون أنتم أول أذن تستمع لدعوته، فتكون معجزة القرآن بلسانكم. إذن فالرحمة الأولى: أنه بشر والرحمة الثانية أنه يأتي بالدعوة بلسانكم والرحمة الثالثة أنه من قريش، القبيلة التي لها قرابات في كل مكان، والرحمة الرابعة: أنه نشأ بينكم تعرفون سلوكه وأمانته، وأنه لم يكذب على بشر قط فهل يكذب على الله؟

إنه رسول إذا قستموه بكل مقاييس البشرية تجدونه أفضلكم في كل خصاله، ولذلك حينما جاء رسول الله ﷺ بدعوة من الله هل انتظرت خديجة رضي الله عنها أن يأتي لها محمد بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن الله؟ هل انتظر أبو بكر رضي الله عنه أن يأتي له محمد بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن الله؟ أبداً لم ينتظرا؛ لأنهما أخذا المعجزة من تاريخ رسول الله عليه الصلاة والسلام وأمانته وصدقه فيما يقول، ولذلك عندما قال لهما: إنه رسول الله صدقاه على الفور؛ لأنه لم يكذب قط. فكيف يكذب على الله؟

إن خديجة رضي الله تعالى عنها حينما أخبرها رسول الله ﷺ بما رأى في الغار ـ وخديجة كانت ناضجة الفكر ناضجة التكوين ـ قالت: والله لا يخزيك الله أبداً وصدقته. ولقد اختار الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ أن يتزوج خديجة رضي الله تعالى عنها وهو في سن الخامسة والعشرين، وهي في سن الأربعين، مع أن المألوف أن الإنسان يحب أن يتزوج بمن هي أصغر منه، ولكن هدف الزواج لم يكن مجرد متعة، فلم يكن زواجاً عاديًا، بل كان زواجاً أُعد بقدر الله ليكون سكينة لرسوله عليه الصلاة والسلام في الفترة الانتقالية التي سيمر بها من بشرية عادية إلى بشرية تتلقى الوحي من السماء.

هذا التغير الهائل كان رسول الله ﷺ محتاجاً فيه إلى قلب أم، وصدر أم وتفهم أم، ووعي أم، تستطيع أن تعالج الموقف بحكمة السنوات، والنضوج العقلي الذي كان لازماً خلال هذه المرحلة.

ولو كانت خديجة فتاة صغيرة طائشة لهربت من أول يوم عاد فيه رسول الله ﷺ من الغار وهو يرتجف، لهربت أو اتهمته اتهامات شتى؛ ذلك أن عقلها لم يكن في هذه الحالة يمكن أن يستوعب تلك التجربة الهائلة التي يمر بها أشرف خلق الله من البشرية العادية إلى البشرية التي تختلط بالملائكة، وتتلقى عن الله بواسطة الملك، ولذلك عندما قال لها رسول الله ﷺ بعد أن رأى جبريل في الغار: إني أخاف أن يكون الذي يأتيني رقيب من الجن. قالت: إنك لتصل الرحم وتكسب المعدم وتعين على نوائب الحق، والله لا يخزيك الله أبداً. وكان لا بدّ لكي تقول خديجة هذا الكلام وتكون صدراً حنوناً لرسول الله ﷺ أن تكون ناضجة العقل والفكر قد صقلتها السنون، تملك العقل الواعي الذي يستطيع أن يميز وأن يختار، لا يكون فيها طيش شباب، ولا رعونة فتاة صغيرة قد تهزها الأحداث فتجعلها تنهار تماماً في هذه الفترة الحرجة من حياة رسول الله ﷺ وكان يتعين

أيضاً أن يكون هذا هو رأي قريش وأهل مكة، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ . . .﴾ [الفتح: ٢٩] فمحمد: مبتدأ ورسول اللَّه: خبر محمد، ابتداءً كان فيكم الصادق الأمين الذي تربى على عين اللَّه وأراد اللَّه أن يحفظه فيكم صغيراً وكبيراً حتى قيل: إنه كلما هم بعمل كحمل أحجار الكعبة عند البناء مثل أقرانه وكانت تظهر عوراتهم عند رفع الثياب، كان يأتي لمحمد صوت ينبهه إلى ذلك فيقول: يا محمد: عورتك عورتك، وكانت فيه تلك الصفات التي عددتها سيدتنا خديجة، وهذا كما قلنا ابتداء؛ لذا كان يتعين أن تصدقوه في خبر السماء بأنه رسول اللَّه.

ومن رحمة اللّه أن يجعل رسوله ﷺ بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً

يقول الحق سبحانه وتعالى مخبراً عنه ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] هنا نجد كلمة الرأفة والرحمة من جانب النبي ﷺ جاءت للمؤمنين فقط، أما الأوصاف الأولى فقد شملت الجميع.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] أي: إنك حزين ومهموم بسبب أنهم لم يؤمنوا، مع أنه لن ينالك شيء فأنت ليس عليك إلا البلاغ فقط، وقد بلغت فلماذا تحزن عليهم؟ فالنبي ﷺ لم يكن حزيناً منهم ولكنه كان حزيناً من أجلهم ومشفقاً عليهم؛ لأنه ﷺ رحمة مهداة للعالمين فكان حريصاً على أن يرى قومه مؤمنين؛ لأنه لحبه لقومه وعشيرته كان يريدهم أن يذوقوا حلاوة الإيمان ويسعدوا بالحياة في ظل منهج السماء، ولذلك يقول سبحانه في آية أخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٣، ٤] أي: لا تفهم أن إيمانهم صعب علينا، فلو أردناهم مؤمنين لآمنوا في الحال؛ لكن حكمة اللّه اقتضت ألا يقهر أحداً على الإيمان؛ لأن الإيمان يأتي بقلوب، والقهر يأتي بقوالب، واللّه يريد أن يأتيه الناس مختارين وعن حب لا عن قهر؛ لأن القهر من القاهر يثبت له قدرة ولكن لا يثبت له محبوبية.

واللّه سبحانه وتعالى يريد أن يكون الإيمان نابعاً من محبوبية العابد للمعبود، من أجل ذلك كله فلا تحزن أو تتعب نفسك من أجلهم؛ لأن الرسول ﷺ كان يكلف نفسه الصعب في سبيل نشر الدعوة وزيادة أتباع الدين الحنيف، ولذلك حينما جاءه رجل مؤمن هو عبد اللّه بن أم مكتوم يسأله عن قضية الإيمان هذا رجل مؤمن لن يكلفه مشقة في الحوار أو الجدال؛ لأنه مؤمن نجد الرسول ﷺ يلوي عنه قلبه وينشغل بمحاورة صناديد قريش المعاندين المكابرين لأنه يؤثر جانب المشقة على نفسه ولذلك عتب عليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾

[عبس: ١، ٢] فكأنّ الله سبحانه وتعالى يقول له: لماذا تتعب نفسك مع هؤلاء المعاندين إنهم لا يستحقون ذلك، أتترك السهل «ابن أم مكتوم» وتذهب للمشقة؟ وذلك مثلما يكون عندك ابن في المدرسة، وظل يذاكر عدة ساعات حتى غلبه النوم ولكنه يقاوم النوم حتى يسقط الكتاب من يده عدة مرات، فتقوم أنت وتأخذ منه الكتاب وتأمره بأن ينام ليستريح، فأنت لم تنهره عن المذاكرة في حد ذاتها، ولكنك لا تريده أن يرهق نفسه فيمرض.

فكذلك ربنا سبحانه ـ ولله المثل الأعلى ـ لا يريد لرسوله ﷺ أن يتعب نفسه مع هؤلاء الكافرين المعاندين، وينبهه إلى توجيه هذا الجهد وهذا العطف والحنان الموجه إلى غير مستحقيه إلى المستحقين من المؤمنين، وذلك بخفض جناحه لهم؛ حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] لأن كل حركة نزوعية من الإنسان تحتاج إلى عملية وجدانية أولاً، فإذا أردت مثلاً أن تكرم إنساناً تأتي صورة الإكرام في ذهنك ثم تقوم بتنفيذها بعد ذلك. إذن فكل حركة يصنعها الإنسان نزوعاً تحتاج إلى طاقة داخلية تهيئ لها وتدفعها، فإذا كان الرسول ﷺ سيحزن على هؤلاء، فهذا الحزن سيأخذ منه طاقة، فقال له سبحانه وتعالى: وَفِّر هذه الطاقة من عند هؤلاء الذين لا يستحقونها ووجهها لمن يستحقها بل وجهها خَفْض جَنَاح، فالرسول ﷺ الذي جاء ليأخذ بيدنا إلى نور الهداية وإلى طريق الجنة هو الذي يخفض الجناح. انظر للحنان والعطف بين المؤمنين فهو لم يجعلك فقط تتوجه بقلبك، على استقامة قالبك لا بل جعلك تخفض القالب أيضاً.

وكلمة: «خفض الجناح» مأخوذة من خفض جناح الطائر، فهو يرفع جناحه عندما يطير، لكن عندما يحنو على فرخه الصغير يخفض جناحه ويلويه عليه عطفاً وحناناً.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يدل على أن الرسالات ما جاءت لتعالي الرسول على المرسل إليهم، إنما جاءت لخدمتهم، ولذلك تجد أقارب النبي ﷺ يحرمون من الأشياء الواجبة لغيرهم، فأقارب النبي الفقراء لا نعطيهم زكاة؛ لأن المسألة ليست مسألة قرابة، حيث كان القريب هو الذي يشقى ويتعب وهو الذي يدفع الثمن إنما الآن نجد القريب الآن هو الذي يأخذ أولاً لأنه قريب مسؤول أو غيره وخفض الجناح لمن آمن لا يورثه كبراً عليك بل يزيده أدباً معك فالمؤمن إذا رأى أخاه خفض له الجناح فلا يقابله بالكبر ولو قابله بالكبر

فستكون النتيجة عكسية ولذلك يقولون: «إذا عزّ أخوك فهن»[١]؛ ولذلك قال الشاعر العربي حتى قبل ظهور الإسلام:

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوانُ
عسى الأيام أن يرجعـ ـن قوماً كالذي كانوا
فلمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ وأمسى وَهْوَ عريانُ
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبانُ
بضربٍ فيه توهين وإضعاف وإقرانُ
وطعنٍ كفم الزِّقِّ غدا والزِّقُّ ملآنُ
وبعض الحلم عند الجهـ ـل للذلة إذعانُ
وفي الشر نجاة حيـ ـن لا ينجيك إحسانُ

فأنا أخفض جناحي للمؤمن الذي ساعة أخفض له جناحي يخفض لي الجناحين.

ولذلك فالقرآن حينما يطبع خلق المؤمن بالله وبالمنهج ولا يعطيه طبعاً واحداً يتعامل به مع كل الناس، إنما يجعل طبعه الخلقي مطابقاً لمواقف الناس منه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ويقول أيضاً: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فالإسلام لم يطبع المؤمن على الشدة ولا على العزة لأنه لو طبعه على الشدة لاشتد حتى على من كان معه من المؤمنين ولو طبعه على العزة لاعتز على المؤمن، ولكنه يريده إنساناً يتفاعل مع المواقف، فالموقف الذي يحتاج إلى شدة يشتد فيه والموقف الذي يحتاج إلى عزة يعتز فيه والموقف الذي يحتاج إلى اللين يلين فيه، أي يضع الشيء في موضعه.

---

(١) مجمع الأمثال للميداني، الجزء الأول فيما أوله همزة.

سعة رحمة اللَّه تعالى

روى مسلم [٢٧٥١/ ١٤] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه، أن النبي ﷺ قال: «لما خلق اللَّه الخلق، كتب في كتاب، فهو عنده فَوقَ العرش: إن رحمتي تَغْلِبُ غَضَبي»(١).

وعنده [٢٧٥٢/ ١٧] عنه رضي اللَّه تعالى عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «جعل اللَّه الرحمة مائةَ جُزءٍ، فأمسَكَ عنده تسعةً وتسعين، وأنزل في الأرض جُزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تُصيبه»(٢).

وعنده [٢٧٥٤/ ٢٢] عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه تعالى عنه؛ أنه قال: قُدِمَ على رسول اللَّه ﷺ بِسَبْيٍ، فإذا امرأة من السبي تبتغي، إذا وجَدَت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا رسول اللَّه ﷺ: «أتَرَونَ هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا. واللَّه! وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول اللَّه ﷺ: «للَّه أرحَمُ بعباده من هذه بولدها»(٣).

وعنده [٢٧٥٦/ ٢٤] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: قال رجل لَمْ يعمَل حَسَنَة قط لأهله: إذا مات فحرقُوهُ ثم اذرُوا نصفه في البر ونصفه في البحر، فواللَّه لئن قدر اللَّه عليه ليعذبنه عذاباً لا يُعذبُهُ أحداً من العالمين، فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم، فأمر اللَّه البَرَّ فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لِمَ فعلت هذا؟ قال: مِنْ خشيتك يا رب! وأنت أعلمُ، فَغَفَرَ اللَّه له(٤).

---

(١) ووافقه البخاري [٣١٩٤]، وابن ماجه [٤٢٩٥].

(٢) ورواه ابن ماجه [٤٢٩٣].

(٣) ووافقه البخاري [٥٩٩٩].

(٤) ووافقه البخاري [٧٥٠٦] وقال الإمام النووي في تعليقه على هذه الأحاديث: هذه الأحاديث من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين.
قال العلماء: لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار ـ المبنية على=

= الأكدار ـ بالإسلام والقرآن والصلاة والرحمة في قلبه وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به، فكيف الظن بمائة رحمة في الدار الآخرة وهي دار القرار ودار الجزاء.

شرح النووي على مسلم [٩/ ٨٤]

قلت: على المسلم أن يضم إلى ذلك حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، الذي رواه مسلم [٢٦١٩/ ١٣٥]، ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار من جراء هرة، أو هر ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلاً». ليجتمع الخوف والرجاء. وهذا معنى كلام ابن شهاب الزهري: «ذلك لئلا يتكل رجل، ولا ييأس رجلٌ».